
مصنع
الذكريات
أحلام بشارات

قصة: أحلام بشارات
التدقيق اللغوي والمراجعة: هديل مقدادي
رسم الغلاف: ياسمين أبو المجد
تصميم الغلاف: رولا الخطيب
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2018/4/2019
ردمك ISBN 978-9957-04-136-6
الطبعة الأولى: 2018

للتواصل مع الدار، الرجاء الكتابة لـ info@alsalwabooks.com

السلوى Salwa ناشرون Publishers

www.alsalwabooks.com

مصنع الذكريات

أحلام بشارات

"الأواني فقط تحمل شيئًا
من البيت والذكرى"

يانيس ريتسوس

مقدمة

تروي أحلام بشارات في "مصنع الذكريات" حكاية جابر الذي يحاول حماية ذكرياته من النسيان، فيخترع مصنعًا وهميًّا يحتفظ فيه بذكرياته عمّن يحبهم. يعتقد جابر أن الذكريات هي روحنا الأخرى التي تجعلنا نتعلّق بالمكان والزمان؛ لذلك يعقد شراكة مع أصدقائه الثلاثة، رافيا ومنصور وعدلي، الذين يتبنون معه فكرة المصنع الخيالي، ومن خلال هذه الشراكة ستتدرّج أحداث الرواية إلى أن يتمكن جابر من فتح الباب المغلق والانطلاق إلى الحاضر بعد أن يدرك أن الإنسان، هذا الكائن المعقّد، لا يستطيع السير قُدمًا دون ذكرياته وألبومات صوره العتيقة التي تحمل قصاصات أيامه فتصبح وقوده لعيش الحاضر والمستقبل.

تدور معظم أحداث الرواية تحت شجرة الخرّوب الواقعة على تلّ العاصور الجاثم تحت الاحتلال في فلسطين. هذه الشجرة سجّلت مرور الكثير من الذكريات تحتها، فكانت شاهدة على حياة أجيال تعاقبت على هذه الأرض.

ربما تكون هذه الرواية الموجّهة لليافعين مختلفة عمّا اعتدنا عليه، وربما ستكون مفاجِئَةً لتوقّعات القارئ العادية، لأنها وبكل بساطة رواية من نمط آخر... إنها تختلف في أسلوبها وفي طرحها وفي سبرها أغوار النفس الإنسانية البسيطة المتشبثة بالأرض وبذرات التراب، ولأنها أيضًا تلامس مخزون الوجدان الإنساني بعمق فتطلقه وتجعله بوابة العبور من مرحلة الصعوبات وانغلاق الدروب إلى مرحلة الأمل الرحب والمستقبل المشرق.

المحرّر

1
الأغنية

جـلستُ أنا وعدلي ومنصور ورافيا تحتَ شجرةِ الخرّوبِ. نفخَ منصور في كفّيْهِ ثمَّ فتحَهما ونثرَ ذرّاتٍ صغيرةً منَ التّرابِ، وصَفَها بالأسطوانيّةِ، وقالَ إنّها كالذّهبِ والفضّةِ، وطيّرَها كسربٍ منَ الطّيور، وهوَ يخاطبُها بصوتٍ غليظٍ آمرٍ: أيّتها الطّيورُ... كوني ماردًا.

أرسلتْ رافيا مع الطّيورِ رسالةً فيها طلباتٌ كثيرةٌ قالتْ فيها:

أيّتها الطيورُ، اذهبي بعيدًا وعودي بسرعةٍ. زوري بلادَ السّندِ وبلادَ الهندِ...

طوفي البلادَ والتقي العبادَ. هاتي الحريرَ والزّعفرانَ والعودَ... هاتي القماشَ الملوّنَ، والكريمات المعطّرةَ. استحمّي تحتَ أشجارِ الصّابونِ، برائحةِ الياسمينِ ذي الزّهراتِ الصّفراءِ.
مددتُ يدي وفتحتُ صورةَ أمّي في السّلسلةِ، ثمَّ قذفتُ بالسّلسلةِ مع ذرّاتِ التّرابِ إلى الأعلى فعادتْ ذرّةً صغيرةً... حملتُها، هدهدتُها، ثمَّ أرسلتُها لتلتحقَ برفيقاتِها وغنّيتُ لها: كوكابالي تالالا... كوكابالي تالالا.

سمعتُ صوتَ أمّي يناغيني وهيَ تدخلُ في فمي ملعقةً منَ المهلبيّةِ وتغنّي لي: كوكابالي تالالا... كوكابالي تالالا. قالتْ: هذهِ كلمةُ السِّرِّ الّتي جعلتْكَ تأكلُ، وتنامُ، وتشربُ الدّواءَ، وتستحمُّ.
عندما مرضَتْ أمّي، ضمّتْ يدي في كفِّها وشدّتْ عليها بأصابعِها رغمَ إعيائِها، وعدّدتْ لي ما استطاعتْ منْ أسماءِ الأهلِ وأفرادِ العائلةِ والأصدقاءِ بدءًا بأبي وجدّي وعمّتي وأولادِ الحارةِ كلّهم، وأولادِ الرّوضةِ الّذينَ درستُ معهمْ وأوّلهمْ رافيا، وأولادِ صفّي كلّهمْ وعلى رأسهمْ عدلي ومنصور... لكنّي ظللتُ أشعرُ، رغمَ هذا العددِ الكبيرِ منَ النّاسِ، بأنّي وحيدٌ بلا أحدٍ إذا هيَ ذهبتْ.

عندما حملوا أمّي إلى المقبرةِ، مشيتُ في جنازتِها إلى جانبِ أبي، وفي داخلي ردّدتُ: كوكابالي تالالا. عودي يا أمّي. كوكابالي تالالا، لا ترحلي إلى عالمٍ آخرَ غيرِ عالمي.

قطعَ منصور حبلَ ذكرياتي عندَما ردّدَ: كوكابالي تالالا، الزّائرُ زائلٌ.

ردّدنا أنا ومنصور ورافيا وعدلي: كوكابالي تالالا... إلى عالمٍ آخرَ يا ذرّاتِ التّرابِ والخشبِ، ونتافاتِ الصّوفِ، وبقايا الرّيشِ، وروائحَ الحظائرِ، وقرونَ الخرّوبِ. كوكابالي تالالا يا أسرابَ الطّيورِ، يا غيومُ، يا رياحُ. كوكابالي تالالا يا ماردَنا المضيئَ، ويا ذكرياتُ... لا ترحلي.

2

الطِّباع

مـازلنا نحتفظُ بذكرياتِنا عنْ بعضِنا، وعلى مدى سنواتٍ طويلةٍ حافظَ كلٌّ واحدٍ فينا على طباعِهِ، وبطريقةٍ أوْ بأُخرى، اعتادَ كلٌّ منّا على طباعِ الآخرِ، حتّى صارتْ طباعُنا الأوانيَ الّتي حفظَتْ ذكرياتِنا منْ أيّامِ روضةِ "الجِنان" وحتّى الصّفِّ التّاسعِ.

رافيا في المدرسةِ الأساسيّةِ العليا للبناتِ. أنا وعدلي ومنصور في المدرسةِ الأساسيّةِ العليا للبنينَ. أنا في الشّعبةِ "ب"، عدلي ومنصور في الشّعبة "أ".

إلّا أنَّ هذا الاعتيادَ لمْ يمنعنا منَ انتقادِ بعضنا بعضًا. وانسجامًا مع قانونِ الحياةِ، فلا يمكنُ أنْ نظلَّ كما ولدتْنا أمّهاتُنا دونَ تغييرٍ يذكرُ. أنا مثلاً، لمْ يكفَّ ثلاثتهم عنْ محاولةِ أنْ يعلّموني كيفَ أصبحُ شخصًا أكثرَ مرونةً، وكانوا يتعدَّونَ، أحيانًا، حدودَهم وهمْ يفعلونَ ذلكَ.

قالَ الحكيمُ منصور: ليسَ مطلوبًا منكَ أنْ تكونَ أكثرَ مرونةً منَ الطّبيعةِ الّتي تراقبُ تقلّباتِها دائمًا. كنْ مثلَها... مثلَ الشّجرةِ ليّنًا وصلبًا... مثلَ البحرِ هائجًا وهادئًا... مثلَ الطّقسِ... مرّةً مشمسًا ومرّةً ماطرًا.

ابتسمتْ رافيا قائلةً: وقدْ تذهبُ لتشتريَ البطاطا الحلوةَ لجدّكَ "عبد السلام"، مع أنّكَ لا ترغبُ في ذلكَ، ثمَّ تشويانِها في النّارِ... هذا نوعٌ منَ المرونةِ أيضًا!

همْهَمَ عدلي: نعمْ، نعمْ. البطاطا الحلوةُ سعرُها رخيصٌ. رأيتُهُ وهو يبتسمُ ويغمزُ منصور بعينِهِ.

نهضتُ وأنا أنفضُ التّرابَ اللّدنَ العالقَ ببنطالي. كنتُ أستعدُّ للعودةِ إلى البيتِ.

أخذَ الجوُّ يعبّئُ هواءً باردًا مكانَ هوائهِ الدّافئِ الّذي سخّنتهُ شمسُ أوّلِ آذارَ الخجولةُ. فكّرْتُ في نفسي: يا إلهي، متى كبُرَ أصدقائي في الرّوضةِ وأصبحوا حكماءَ!

وفجأةً، تلبّدتِ السّماءُ بالغيومِ ثمَّ سمعنا صوتاً مدوّيًا...

صاحَ عدلي: جيش... جيش... دوريّةُ جيش!!

أمرَنا منصور بحزم: انبطحوا.

انبطحتُ سريعًا فوقَ الأرضِ. احتضنتُ جذعَ الشّجرةِ اليابسَ الّذي كانتْ رافيا تجلسُ عليهِ قبلَ قليلٍ. أغمضتُ عينيَّ، وأغلقتُ أُذنيَّ. لمْ أردْ سماعَ صوتِ الرّصاصِ، ولنْ أحتملَ دخولَهُ في جسمي. لمْ أسمعْ صوتَ منصور وهوَ يهزّني منْ كتفي، ولا صوتَ عدلي وهوَ يضحكُ، لكنّني أحسستُ بثقلِ جثّتهِ فوقي، وهوَ يرتمي عليَّ. لمْ أسمعْ صوتَ رافيا أيضًا. رفعتُ رأسي وفتحتُ عينيَّ.

سألتُهم: أينَ رافيا؟

أجابا إجابتهما المعتادةَ كلّما سئلا عنْ شيءٍ أو أحدٍ وأرادا التّمويهَ: ذهبتْ مع الرّيحِ.

ثمَّ أردفَ منصور محاولاً التّخفيفَ منْ غضبي: إنّهُ مقلبٌ.

وتبعَهُ عدلي بقولهِ دونَ أنْ أعلّقَ بكلمةٍ واحدةٍ: إنّهُ التّطبيقُ العمليُّ لما كنّا نقولُهُ للتّوِّ.

غضبتُ وركضتُ محاولاً اللّحاقَ برافيا.

صوتُ عدلي تردّدَ في سماءِ الخرّوبةِ: لقدْ كانَ ذلكَ الصّوتُ رعدًا وليسَ جيشًا.

لحقني منصور، وعندَما أمسكَ بي ارتميتُ على الأرضِ. كنتُ ألهثُ، فارتمى إلى جانبي.

قالَ محاولاً التّحكّمَ بأنفاسِهِ المتلاحقةِ: لا بأسَ، لا بأسَ. سيفيدُكَ هذا المشهدُ عندَما نتعرّضُ لزلزالٍ وتقومُ بعمليّةِ الإخلاءِ.

نظرتُ خلفي... كانَ عدلي مايزالُ يضحكُ. عدلي يضحكُ بسببٍ وبدونِ سببٍ. لمْ نكنْ نتحمّلُ مقالبَهُ، لكنّنا جميعًا متّفقونَ على أنّهُ صاحبُ قلبٍ طيّبٍ، لذلكَ كنّا نسامحُهُ. كنتُ أتساءلُ بيني وبينَ نفسي عنْ تصرّفاتِهِ، وتجرّأتُ هذهِ المرّةَ فقلتُ لمنصور: في داخلِ عدلي حربٌ مشتعلةٌ. هلْ تحسُّ الشّيءَ نفسَهُ؟

تابعتُ دونَ أنْ أنتظرَ جوابَهُ وسألتُهُ كمنْ يحاولُ أنْ يربطَ الأمورَ ببعضِها: قلْ لي، منْ أينَ يأتي بمقالبِهِ؟

رافيا "الحنونةُ"... منصور "الحكيمُ"... عدلي "صانعُ المقالبِ"... جابر "مراقبُ الطّبيعةِ" و"صانعُ الذّكرياتِ"... هذهِ كانتْ أعمالُنا. كنتُ أظنُّ

أنَّ منْ حقِّ الأصدقاءِ معرفةَ كلِّ شيءٍ عنْ أصدقائِهمْ، لكنّي في نفسِ الوقتِ كنتُ أعتقدُ أنَّ لدى كلِّ واحدٍ فينا سرًّا يبقيهِ مخبّأً بينَ صفحاتهِ الدّاخليّةِ إلى أنْ يأتيَ يومٌ يختارُ فيه شخصًا واحدًا منْ بينِ سكّانِ الكوكبِ كلّهمْ فيلقي بسرّهِ بينَ يديْهِ ويقولُ لهُ: هاكَ، خذْ سرّي... فيرتاحُ.

فكّرتُ... ما هيَ الأسرارُ الّتي يحتفظُ بها أصدقائي؟

فكّرتُ بما هوَ مسموحٌ أنْ نقولَهُ وما هوَ غيرُ مسموحٍ؟

بالنّسبةِ لي... لمْ يعلّمني أحدٌ ماذا أقولُ وماذا لا أقولُ.

أصدقائي، مَنْ علّمَهُمْ؟ أمّهاتُهُمْ؟

ظللتُ أتذكّرُ جملةً قالتْها عمّتي عندَما جاءتْ لزيارتِنا منْ ألمانيا: فكّرْ جيّدًا قبلَ أنْ تقولَ كلمةً واحدةً. حاولتُ أخذَ جملتِها على محملِ الجدِّ، لكنّي لمْ أعرفْ بماذا أفكّرُ ولا كيفَ، هلْ أحسبُ عددَ الكلماتِ أمْ أغيّرُ منْ طريقَتي؟ يومَها احتدَّ النّقاشُ مع زوجةِ أبي، فرفعتُ صوتي، لطالَما قالَ لي أبي: لا ترفعْ صوتَكَ في وجهِ خالتِكَ! عندَما ماتَتْ أمّي حلّتْ محلَّها امرأةٌ أُخرى.

قالتْ عمّتي: جابر... نادِها "خالتي".

قالَ لي منصور وعدلي ورافيا: نحنُ نرفعُ أصواتَنا أحيانًا عندَما نغضبُ،

ولمْ يسقطِ السّقفُ فوقَ رؤوسِنا، ولمْ تنشقَّ الأرضُ فتبتلعنا، ونصحوني: المهمُّ أنْ يكونَ صراخُكَ بمعيارٍ.

لمْ أعرفْ ما معنى المعيارِ، ولا أستطيعُ أنْ أفسّرَ كيفَ يعرفُهُ عدلي ومنصور ورافيا، ولا أعرفُهُ أنا رغمَ أنّنا في عمرٍ واحدٍ ودرسنا في روضةِ "الجنان" معًا. ولكنْ يبدو أنّني رفعتُ صوتي على خالتي خارجَ حدودِ المعيارِ.

وقتَها، أنّبني جدّي: هلْ هكذا ربّيتُكَ؟!

طأطأتُ رأسي.

سألَني: منْ علّمكَ هذا؟

لمْ أُعلّقْ.

تابعَ كلامَهُ: هادئٌ ومجنونٌ. كيفَ صرتَ تجمعُ بينَ هذيْنِ النّقيضيْنِ يا ولدُ؟

ثمَّ شدّني منْ أُذني وضحكَ، وطلبَ منّي أنْ أعدَهُ أنْ تكونَ المرّةَ الأخيرةَ، وأردفَ: ألمْ يعلّموكُم في المدرسةِ حديثَ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أنْ: "ليسَ الشّديدُ بالصّرعةِ، إنّما الشّديدُ الّذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ"؟

لمْ يشرحْ لي جدّي كيفَ أملكُ نفسي؟ هلْ أشتريها مقابلَ النّقودِ؟ منْ أينَ أحصلُ على النّقودِ؟ حتّى منصور وعدلي لمْ يوضّحا الأمرَ لي. فعدلي

لديهِ فقطْ أمثلةٌ عمليّةٌ على المزاحِ، بينَما منصور لديهِ منَ الحكمِ ما يعتقدُ أنّهُ يقدّمهُ على شكلِ لقماتٍ معجونةٍ بطحينٍ بلديٍّ فيسهلُ بلعُها وتقبّلُها. رافيا الوحيدةُ الّتي كانتْ تمتلكُ طُرُقًا عمليّةً لتفسيرِ الكلامِ الّذي تقولُهُ. إنّها لا تبعثرُ الكلامَ مثلَ حبّاتِ قمحٍ على الأرضِ لا يستفادُ منها، بلْ تشفعُهُ بالأمثلةِ.

قالتْ لي رافيا بكلِّ جدّيّةٍ: لا تخشَ شيئًا... سأعلّمُكَ.

3

ميزان معلّق

بسلسلة تلمع

بـعثتْ رافيا إليَّ برسالةٍ على الهاتفِ كتبتْ فيها: تعالَ، لاقني تحتَ شجرةِ الخرّوبِ بعدَ ساعة. إذا لمْ تجدْني... معنى ذلكَ أنَّ الخطّةَ قدْ تغيّرتْ، وسأرسلُ لكَ رسالةً ثانيةً أحدّدُ فيها المكانَ والزّمانَ.

وصلتُ فوجدتُ رافيا بانتظاري، وكنتُ سعيدًا، فأنا لنْ أنتظرَ أنْ ترسلَ لي برسالةٍ أُخرى تحدّدُ فيها الزّمانَ والمكانَ. كانَ صبري سينفدُ في انتظارِ أنْ أتعلّمَ كيفَ أملكُ نفسي.

قالتْ رافيا: ها نحنُ ذا، وباستطاعتِنا أنْ نبدأَ.

وأكملتْ بلهجةِ معلّمةٍ تتحدّثُ مع تلميذِها: نَمْ على الأرضِ. نَمْ على ظهرِكَ. وأشارتْ بيدِها، ولمّا تأخرتُ في تنفيذِ طلبِها، مدّتْ يدَها فسوّتِ التّرابَ الرّطبَ، وتمدّدتْ فوقهُ بحركةٍ رياضيّةٍ سريعةٍ، ثمَّ نهضتْ وقالتْ: كما رأيتَ... افعلْ مثلي.

فعلتُ ذلكَ على مضضٍ...

وخزتني الحجارةُ، والأشواكُ الصّغيرةُ في ظهري.

أمرتْني رافيا أنْ أغمضَ عينيَّ، وأنْ أنسى مكانَ وزمانَ وجودي.

أغمضتُ عينيَّ... فعلتُ ذلكَ بصعوبةٍ بادئَ الأمرِ، وكلّما حاولتُ فتحهما انهالَ عليَّ صوتُ رافيا مثلَ عصًا غليظةٍ: بعمقٍ، بعمقٍ. أنتَ الآنَ خارجَ الزّمانِ والمكانِ. أنتَ الآنَ تسيرُ في مكانٍ مفتوحٍ. حواليكَ أشجارٌ كثيرةٌ، وعصافيرُ تغنّي، وورودٌ منْ كلِّ الألوانِ. إنّها الحديقةُ. أنتَ تسيرُ في الحديقةِ.

إذا أردتَ أنْ تزرعَ فيها شجرًا، ازرعْ. إذا أردتَ أنْ تحصلَ على طائرٍ، فكّرْ فيهِ... إذا أردتَ أنْ تسمعَ صوتًا لأحدٍ تخيّلْهُ... أوْ أنْ تقابلَ أحدًا، ركّزْ مخيّلتكَ، وتمنَّ ذلكَ. إذا مدَّ لكَ يدَهُ، مدَّ لهُ يدكَ. سِرْ معهُ. امشِ بهدوءٍ. تنفّسْ وأنتَ تمشي.

استمتعْ وأنتَ تمشي، وتأمّلْ في داخلك، ستجدُ ميزانًا معلّقًا برئتيْكَ في سلسلةٍ تلمعُ. اقبضْ على السّلسلةِ بإحكامٍ، إنّهُ العمودُ الذي تستندُ عليهِ نفسُكَ، فاستندْ عليه بذراعيْكَ. اسمعِ الموسيقى الّتي تريحُكَ، وشاهدِ الزّهورَ الّتي تحبُّها. إنّها حديقتُكَ. خذْ شهيقًا منْ أنفكَ، وأطلقْ زفيرًا منْ فمِكَ. حرّكْ رئتيْكَ لتهتزَّ السّلسلةُ كأنّها أرجوحةٌ تلعبُ بكَ رويدًا رويدًا.

كانَ المعيارُ حديقةَ رافيا الّتي اكتشفتُها، تنفّستُ بعمقٍ... تنزّهتُ... فتحتُ ذراعيَّ، فركضتُ نحوي غزالة وحضنتني. سالتْ دموعي على صدرِها، فتحرّرتُ منْ ألمٍ كانَ يتكوّمُ فوقَ رئتيَّ منذُ سنواتٍ. رأتْ رافيا دموعي فمسحتْها بيدِها وقالتْ: إنّها حديقتُكَ، افعلْ فيها ما تشاءُ... ابكِ.

4

فمُ الشّمس

- إذًا... أنتَ الّذي يحملُ حقيبةً مليئةً بالذّكرياتِ؟

- نعمْ.

- مِنْ أينَ جئتَ؟

- مِنْ قمّةِ الجبلِ.

- ماذا يوجدُ في حقيبتِكَ بالضّبطِ؟

- أشرطةُ أغانٍ. صورٌ منْ حفلةِ عيدِ ميلادي الخامسِ. صحنُ الوجباتِ

الثّلاثِ. مطرةُ الرّوضةِ. خيطٌ رفيعٌ يلمعُ. علبةُ ألوانِ الصّابونِ. موسوعةُ الجغرافيا العلميّةِ. الكرةُ الأرضيّةُ المصنوعةُ منَ الزّجاجِ. سنّي اللبنيّةُ المقلوعةُ. منديلٌ موردٌ منْ مناديلِ "غزالة".

- هلْ طرتَ قبلَ هذهِ المرّةِ؟

- نعمْ... منْ فوقِ البرميلِ.

- على ارتفاعِ كمْ كيلو مترًا؟

- على ارتفاعِ مترٍ أو أقلَّ.

- إذًا، تعالَ. ارخِ ذراعيْكَ. لماذا أنتَ متشنّجٌ هكذا؟ أغمضْ عينيْكَ. ستقفزُ منْ فوقِ البرميلِ مرّةً أُخرى.

وتردَّدَ صوتٌ قويٌّ:

سيّدَ الرّياحِ والمطرِ والعواصفِ، سيّدَ البحرِ، حاملي رايةِ التّنينِ، حرّاسَ الذّكرياتِ.

ردّدتُ خلفَ الصّوتِ الّذي كانَ ينتشرُ في الفضاءِ كأنّهُ يأتي منْ بوقٍ. كانَ صوتي والصّوتُ الآخر يُسمَعانِ منفردَيْنِ: صوتٌ عريضٌ أجشُّ، وصوتٌ رفيعٌ مثل رأسِ إبرةٍ، ثمَّ اختلطَ الصّوتانِ وصارا صوتًا واحدًا.

كنتُ أسمعُهُ فأعرفُ أنّهُ صوتي، لكنّهُ لمْ يكنْ يخرجُ منْ فمي. تحسّستُ لساني فوجدتُ مكانَهُ لوحَ خشبٍ.

- لقدْ صدمتُ كوكبًا بسفينتي.

- لا تقلقْ. انظرْ إليها. السّفينةُ لمْ تَمُتْ، والكوكبُ مضى في طريقِهِ.

- ألا توجدُ شرطةُ مرورٍ هنا؟

- على الشّوارعِ الرّئيسةِ فقطْ.

- نحنُ الآنَ إذًا على طريقٍ فرعيٍّ؟

- نعمْ، اختصارًا للوقتِ، فأنتَ مطلوبٌ لمهمّةٍ مستعجلةٍ.

رأيتُ رافيا تقودُ سفينةً وتتّجهُ نحوَ الشّرقِ. نظرتْ نحوي قبلَ أنْ توقفَ سفينتَها، ثمَّ جاءني صوتُها وكنتُ أراها منْ بعيدٍ تمدُّ يدَها وتمسحُ وجهَ الشّمسِ بفوطةٍ تركوازيّةٍ كبيرةٍ جدًّا، أكبرَ منْ رافيا نفسِها:

الشّمسُ مصابةٌ بالإنفلونزا. وصلتْني رسالةٌ هذا الصّباح منْ حُرّاسِ دربِ التّبّانةِ يستعجلونَني: تعاليْ حالاً، محمّلةً بالماءِ حتّى تغسلي عينيِ الشّمسِ، وتصنعي لها كمّاداتٍ باردةً.

امتدّتْ يدُها حتّى صارتْ أمامَ عينيَّ مباشرةً وبلهجةٍ آمرةٍ قالتْ لي:

جابر، اصنعْ كأسًا منَ الأعشابِ السّاخنةِ بسرعةٍ واتبعْني.
كانتْ تتحدّثُ وتحدّقُ بي بعينيْنِ بنيّتيْنِ واسعتيْنِ.
سألتُها: هلْ رأيتِ غزالة؟
لمْ تُجبني. وسرعانَ ما انهمكتْ في عملِها، فبدتْ كأنَّها نسيتْ وجودي.
كنتُ أرفعُ كأسًا لهُ فمُ تنّينٍ يسيلُ منهُ سائلٌ أبيضُ مزيّنٌ بكراتٍ صغيرةٍ بلونِ الكمّونِ، ولهُ رائحةُ معجونِ الأسنانِ المنعشةُ، ولمْ أكنْ أعرفُ قبلَ تلكَ اللّحظةِ أنَّ للشّمسِ فمًا، وأنَّ فمَها صغيرٌ إلى ذلكَ الحدِّ مثلَ منقارِ العصفورِ. نقرتُ عليهِ كأنّي أطرقُ على بابٍ، ثمَّ جاءَ صوتٌ منَ الدّاخلِ:
منِ الطّارقُ؟
أجابتْ رافيا نيابةً عنّي، وكأنّها عادتْ وتذكّرتني فجأةً: طبيبُ الأعشابِ.
لمْ أكنْ أعرفُ، حتّى تلكَ اللّحظةِ أنّي أنا طبيبُ الأعشابِ. كانتْ تقفُ على الدّرجةِ الأخيرةِ لسلّمٍ طويلٍ، يمتدُّ منْ أعلى شجرةِ الخرّوبِ، ويصلُ حتّى رموشِ عينِ الشّمسِ. بدتْ كأنّها منهمكةٌ في غسلِ نوافذِ عمارةٍ عاليةٍ جدًّا. قالتْ لي: لا تنظرْ إلى الأسفلِ!
وأمرني صوتٌ قادمٌ منْ بطنِ الشّمسِ: ادخلْ... فدخلتُ.

5

ذكرى واحدة عن الطّيران

عـندما حدّثتُ رافيا وعدلي ومنصور عنْ حلمي لمْ يستغربوا، لكنّهم لمْ يمنعوا أنفسَهُمْ منَ الضّحكِ. اعتبروا أنَّ ذلكَ نتيجةٌ طبيعيّةٌ لتعلّقي بالجغرافيا منذُ أيّامِ الرّوضةِ، ومتابعتي لأحوالِ الطّقسِ لسنواتٍ طويلةٍ. منذُ سنواتٍ والجميعُ يعاملونني على أنّني الرّاصدُ الجوّيُّ للحارةِ؛ فمثلاً... تسألني جارتُنا "أمّ حمدان" متى تفتحُ بابَ الخمِّ لدجاجاتِها حتّى يسرحنَ في الخلاءِ، ويجمعنَ بقايا الحبوبِ، ويأكلنَ الحشراتِ

الصّغيرةَ، وينقّبنَ عنِ الدّيدانِ. وأمّي كانتْ تسألُني متى تنشرُ الغسيلَ على السّطحِ، ومتى تجمعُهُ. ويسألُني أبي متى يحرثُ تحتَ أشجارِ الزّيتونِ فيبذرُ حبوبَ السّمسمِ والفجلِ والبازيلاءِ، ويسألُني منصور متى يلبسُ بلوزتَهُ ذاتَ العنقِ، ويسألني عدلي: هلْ أجيُ إلى المدرسةِ بمظلّتي؟ وتصلُني رسالةٌ منْ رافيا: مساءُ الخيرِ يا جابر، تسألُك أمّي عنْ رأيكَ، هلْ ترفعُ ملابسَ الصّيفِ فوقَ الخزانةِ، وتعلّقُ ملابسَ الشّتاءِ بدلاً عنها؟

فرحتْ رافيا لأنّها كانتْ معي في الحلمِ، وقدْ أعجبَها أنَّ حرّاسَ دربِ التّبّانةِ قدِ اختاروها ممرّضةً لعينِ الشّمسِ، تغلي الشّايَ وتضعُهُ على شكلِ ضماداتٍ فوقَ جفنيْها. تعالجُ عيني الشّمسِ منَ الرّمدِ. تغسلُ وجهَها في الصّباحِ، وتصنعُ لها الكمّاداتِ الباردةَ كلّما ارتفعتْ حرارتُها. سألَني عدلي: لوْ كنتَ في المجلسِ الأعلى للشّمسِ، ما هي الوظيفةُ الّتي كنتَ ستعيّنُني فيها؟

أجبتُهُ دونَ تردّدٍ: المهرّجُ المسؤولُ عنْ ضحكةِ الشّمسِ.

سألني: هلْ تضحكُ الشّمسُ؟

- بالطّبعِ، كلَّ صباحٍ عندَما تشرقُ.

ابتسمَ عدلي وهزَّ رأسَهُ، وبدا مقتنعًا بوظيفتهِ.

سألني منصور بجديّةِ حكيمٍ: وأنا؟

- أنتَ ستكونُ كاتمَ أسرارِها.

سألَني منصور مرّةً أُخرى: وما سرُّ الشّمسِ؟

- الضّوءُ والعتمةُ، الاشتعالُ والخبوُّ.

أضاءَ وجهُ منصور وهوَ يتسلّمُ وظيفتَهُ، وعتَّمَ على سرّهِ مثل ليلٍ أسودَ يخفي ما فيهِ.

وهكذا التحقَ أصدقائي بوظائفَ تناسبُ طباعَهُمْ.

ذاتَ مرّةٍ، تحدّثَ إلينا أستاذُ التّاريخِ عنِ التّخصّصاتِ المهنيّةِ قائلاً: إنَّ الاحتلالَ ليسَ وحدَهُ الّذي يزيدُ منْ حجمِ البطالةِ في فلسطين بلْ أيضًا، فلسفةُ التّعليمِ، وثقافةُ النّاسِ الّتي تقومُ على دفعِ الطّلابِ للتّوجّهِ إلى التّعليمِ الأكاديميِّ ليصيروا مهندسينَ وأطبّاءَ ومدقّقي حساباتٍ ممّن امتلأَ بهمْ سوقُ العملِ، مع أنَّ بإمكانِهِمْ أنْ يتعلّموا النّجارةَ والحدادةَ والفندقةَ وخياطةَ الملابسِ، ومهنًا أُخرى مازالتْ أبوابُها مفتوحةً أمامَ منْ يطرقُها. سألَ عدلي الأستاذَ: لماذا لا نجدُ للعاطلينَ عنِ العملِ مهنًا في كواكبَ أُخرى؟

ضحكَ طلّابُ الصّفِّ كلُّهُمْ، وضحكَ أستاذُ التّاريخِ.

قالَ عاطف ساخرًا: نعمْ يا أستاذ، مثلاً في كوكبِ زحل.

وعلّقَ محمود ضاحكًا: نعمْ، سمعْنا في الأخبارِ أنّهم يريدونَ طبّاخينَ في بلوتو. فضحكَ طلابُ الصّفِّ...

كانَ معروفًا عنْ عدلي خفّةُ دمِهِ، لذلكَ اعتبرَ الجميعُ ما قالَهُ مجرّدَ نكتةٍ، لكنَّ منصور، كاتمَ أسرارِ الشّمسِ، شعرَ بخطرٍ يهدّدُ مهنتَهُ؛ فكوّرَ مجموعةً منَ الورقِ وألقاها على كتفِ عدلي. وعندَما نظرَ عدلي نحوَهُ أشارَ إليهِ وهوَ يرسمُ خطًّا على فمِهِ، ففهمَ منْ تلكَ الإشارةِ أنَّ عليهِ أنْ يغلقَ فمَهُ. ضربَ على رأسِهِ متأسّفًا، لأنّهُ كادَ أنْ يفشيَ سرّهُما.

6

حرّاس درب التّبّانة

أنا طبيبُ الأعشابِ وصانعُ الذّكرياتِ، ورافيا الممرّضةُ الرّسميّةُ لرعايةِ الشّمسِ، ومنْ هناكَ بدأَ كلُّ واحدٍ فينا يفكّرُ بالمهمّةِ الملقاةِ على كتفِهِ. لكنَّ السّؤالَ الّذي طرحَهُ الجميعُ: كيفَ سنصلُ إلى هناكَ؟ إلى مكانِ عملِنا لنقومَ بمهامِّنا؟ وانتظروا منّي أنْ أجيبَهُمْ عنْ سؤالِهِمْ. إنّهمْ بطريقةٍ ما جعلوني مديرًا لأعمالِ الشّمسِ على الأرضِ، وقدْ حاولتُ أنْ أتهرّبَ منْ تلكَ المسؤوليّةِ لانشغالي بأمورٍ كثيرةٍ أُخرى، فقلتُ لهمْ: أنا

مشغولٌ بمتابعةِ أحوالِ الطّقسِ وبصناعةِ الذّكرياتِ كما أنّني مازلتُ مشغولاً بالبحثِ عنِ المعيارِ لأحسبَ عددَ الكلماتِ المسموحةِ في الكلامِ.

سألوني مستغربينَ: عنْ أيِّ كلامٍ تتحدّثُ؟

قلتُ لهمْ: أيُّ كلامٍ أقولُهُ لأيّ أحدٍ... يجبُ أنْ يكونَ بمعيارٍ!

ضحكَ عدلي وقالَ: ما عليكَ سوى أنْ تحضرَ ميزانًا.

فكّرتُ في ميزانِ رافيا الّذي يتدلّى منْ سلسلةٍ تلمعُ، أقبضُ عليهِ، فأستطيعُ أنْ أملكَ نفسي.

قلتُ لهمْ: الميزانُ ضروريٌّ لوزنِ الكلامِ، وكميّاتِ الأمطارِ الهاطلةِ على الأرضِ، وقطعِ الذّكرياتِ، ولإعدادِ الخلطاتِ الخاصّةِ بعلاجاتِ الشّمسِ، وكيْ يملكَ الإنسانُ نفسَهُ...

قاطعني عدلي متسائلاً: ولكنّكَ لمْ تجبْنا على سؤالِنا؟ كيفَ سنصلُ إلى الشّمسِ ونتسلّمُ مهامَّنا؟

صمتُّ مفكّرًا، ثمَّ أخبرتهُمْ أنَّ الطّريقةَ الأدقَّ كيْ يتسلّمَ كلُّ واحدٍ منهُمْ مهمّتَهُ هيَ أنْ يختليَ بنفسِهِ بعدَ أنْ يجلسَ في فراشِهِ كلَّ ليلةٍ؛ ليتفكّرَ ويتدبّرَ. لنْ يحتاجَ الأمرُ أكثرَ منْ ساعةٍ منَ التّفكيرِ، ينشغلُ فيها كلُّ

واحدٍ منكُمْ عمّا حولَهُ، يغلقُ رأسَهُ على فكرتِهِ، وعندَما يضعُ رأسَهُ على الوسادةِ ويغمضُ عينيْهِ فيغرقُ في النّومِ، سيعبرُ إلى الشّمسِ في حلمِهِ، وعلى بابِ الحلمِ، سوفَ يلتقي بحرّاسِ دربِ التّبّانةِ... سيلقونَ عليهِ سؤالاً: هلْ طرتَ منْ قبلُ؟ سيصبحُ هذا السّؤالُ روتينيًّا مع الوقتِ، عندَما يعتادُ عليهِ، فيجيبُ عنهُ غيبًا، عنْ ظهرِ قلبٍ، وفي كلِّ مرّةٍ دونَ عناءٍ. لذا أرجو من كلِّ واحدٍ منكُمْ أنْ يذهبَ إلى حلمِهِ الأوّلِ وهوَ مزوّدٌ بذكرى واحدةٍ، على الأقلِّ عنِ الطّيرانِ... وتحديدًا عدلي ومنصور. ثمَّ أضَفْتُ: خذوا حقائبَ الذّكرياتِ معكُمْ، وضعوا فيها ذكرى واحدةً عنِ الطّيرانِ.

تساءلَ عدلي معترضًا: ورافيا؟ لماذا لا تأخذُ معها ذكرى الطّيرانِ أيضًا؟

أجابتْ رافيا مدافعةً عنْ نفسِها: لقدْ قفزتُ عنْ جذعِ شجرةِ الخرّوبِ أكثرَ منْ مرّةٍ. ثمَّ لا تنسوْا أنّي رافقتُ جابر في رحلتهِ الأولى إلى هناكَ... إلى الشّمسِ... في حلمِهِ الأوّلِ. لقدْ صارَ طريقي مفتوحًا. كلُّ ما عليَّ هوَ أنْ أضعَ رأسي على الوسادةِ وأركبَ سفينتي، محمّلةً بالماءِ وفوطِ المسحِ، وبعضِ الضّماداتِ.

أخذَ عدلي يحكُّ رأسَهُ محاولاً تذكّرَ مرّةٍ واحدةٍ حاولَ فيها الطيرانَ

ولكنْ دونَ جدوى.

اقترحتْ رافيا أنْ يستعملَ كلٌّ منهُما دفترَ الرّسمِ فيرسمَ نصفَهُ السّفليَّ أوِ العلويَّ ثمَّ يكملهُ على شكلِ طائرٍ يحبُّهُ بجناحينِ... وكلّما كانَ الجناحانِ كبيرَيْنِ أصبحا أكثرَ قدرةً على حملهِ في الحلم بسرعةٍ أكبرَ وأكثرَ أمانًا، فيضمنانِ وصولَهُما دونَ أنْ يسقطَا فوقَ الأرضِ فتتكسّرَ عظامُهُما. أخبرَتْنا أنَّها عرفتْ هذهِ الخدعةَ الجميلةَ منْ كتابٍ لرسّامٍ سودانيٍّ لمْ تعُدْ تتذكّرُ اسمَهُ.

صمتَ الاثنانِ مفكّرَيْنِ، ثمَّ قالَ منصور الّذي بدا مقتنعًا بالفكرةِ: لنرسمْ يا عدلي، فتصيرَ لديْنا ذكرى واحدةٌ عنِ الطّيرانِ.

7

حصّة الفنّ

لـم يُعْرَفْ عنْ عدلي أوْ عنْ منصور موهبتُهما في الرّسمِ، ولا حبّهُما لهُ. كانَ عدلي يقضي حصّةَ الفنِّ وهوَ يُطلقُ النّكاتِ. يتنقّلُ منْ مقعدٍ إلى آخر، وبسرعةٍ لامتناهيةٍ يكوّنُ شلّةً منَ الطّلّابِ الّذينَ يلتفّونَ حولَهُ مثلَ العقدِ، وسرعانَ ما ترتفعُ أصواتُهُمْ بالضّحكِ؛ فيفهمُ الأستاذُ أنَّ عدلي قدْ بدأَ بعملِهِ، ورمى بينَ زملائِهِ نكتةً طازجةً كفاتحةِ خيرٍ. لقدْ يئسَ الأستاذُ منْ إصلاحِهِ، فراحَ يخترعُ في كلِّ حصّةٍ وسائلَ جديدةً لإلهائِهِ.

في الحصصِ الأخيرةِ، اعتادَ الأستاذُ أنْ يوكلَ إليهِ مجموعةً منَ المهامِّ؛ أحيانًا كانَ يرسلُهُ ليحضرَ شيئًا منْ غرفةِ المعلّمينَ، كأحدِ الكتبِ، أوْ دفترِ العلاماتِ، أوْ كوبِ الشّايِ، ودائمًا كانَ يرسلُهُ كيْ يقرعَ الجرسَ معلنًا انتهاءَ الحصّةِ الثّالثةِ، وبدايةَ الفسحةِ، وقبلَ نهايةِ الحصّةِ بعشرِ دقائقَ كانَ يرسلُهُ لإحضارِ سندويشتيْنِ أو ثلاثةٍ منْ مقصفِ المدرسةِ.

بدا عدلي، هذا اليومَ، وعلى غيرِ العادةِ، منشغلاً بكرّاسةِ الرّسمِ. لقدْ كانتْ فكرةُ أنَّ عدلي يمتلكُ كرّاسةَ رسمٍ مفاجأةً كبيرةً للأستاذِ وللطّلّابِ على حدٍّ سواءٌ.

جلسَ عدلي على مقعدِهِ كشخصٍ غيرِ مستعدٍّ لتحمّلِ أيِّ مهامَّ بعيدًا عنْ وظيفتِهِ كموهوبٍ مبتدئٍ، والأمرُ لمْ يتوقّفْ على امتلاكِهِ لكرّاسِ رسمٍ، فعدلي يحملُ علبةَ ألوانٍ، وممحاةً، وأكثرَ منْ قلمٍ خاصٍّ بالرّسمِ! ثمَّ كانتْ مفاجأةُ الأستاذِ الكبيرةُ عندَما جاءَهُ عدلي ومنصور معًا، كلُّ واحدٍ منهُما يحملُ كرّاسَهُ، وقد رُسمَ في كرّاسِ منصور رأسُ بومةٍ وساقا إنسانٍ، وفي كرّاسِ عدلي رأسُ ببّغاءَ وساقا إنسانٍ.

لقدْ ذهلَ الأستاذُ بالرّسميْنِ، ولاسيّما أنَّ صاحبيْهما لمْ يكتفِيا بالرّسمِ وحدَهُ، بلْ وضعَا عنوانًا للّوحةِ، فمنصور سمّى لوحتَهُ "بومور"، وعدلي سمّاها "عدلاء".

انكشفتْ شفتا الأستاذِ عنْ ضحكةٍ غالبَ نفسَهُ في كتمانِها، وكانتْ تلكَ فرصةَ الطّلّابِ الّذينَ تجمّعوا حولَ طاولتِهِ، واعتبروا ضحكَهُ إشارةً لهمْ للبدءِ. لقدْ جاءتهُمُ الفرصةُ منْ تلقاءِ نفسِها.

حاولَ الأستاذُ إيقافَ الأولادِ الّذينَ أخذوا يصيحونَ في الصّفّ بأعلى أصواتِهِمْ: عدلة والماتور. بسرعةٍ لامتناهيةٍ نحتَ طلّابُ الصّفِّ منَ الاسميْنِ اسميْنِ للدّعابةِ وركبّاهما في جملةٍ واحدةٍ مكوّنةٍ منْ معطوفٍ ومعطوفٍ عليهِ، فصارَ اسمُ عدلي بفضلِ البّبغاءِ "عدلة"، وصارَ اسمُ منصور بفضلِ البومةِ "ماتور".

لمْ يستطعِ الأستاذُ السّيطرةَ عليهِمْ. طلبَ منهمْ أنْ يحترموا الحصّةَ وأنْ يعودوا إلى مقاعدهِمْ، ويشبكوا أيديهُمْ، ويغلقوا أفواهَهُمْ. لكنّهمْ لمْ يرتدعوا، فكانتْ حصّةَ فنٍّ امتزجتْ فيها رسوماتُ الحيواناتِ بالغناءِ والضّحكِ ونحتِ الأسماءِ، وكانتْ فرصةً إضافيّةً لكشفِ جانبٍ آخرَ لمْ يعرفْهُ أحدٌ عنْ عدلي.

غضبَ عدلي، وكانتْ تلكَ المرّةَ الأولى الّتي يُظْهِرُ فيها غضبَهُ. احمرَّ وجهُهُ، وانتفختْ عيناهُ، ولأوّلِ مرّةٍ انقلبتْ دفّةُ الأمورِ ضدّهُ، فاتّهَمَ زملاءَهُ بأنّهُمْ يسخرونَ منهُ، ولمْ يستطعِ الأستاذُ أنْ يدافعَ عنهُ، فبدا

كأنّهُ شريكٌ معَ طلّابِهِ، ووجّهَ كلامَهُ لعدلي ممازحًا: ذقْ ممّا تُطْعِمُ الآخرينَ منهُ.

لمْ تستطعْ رافيا وجابر إمساكَ نفسيْهِما عنِ الضّحكِ، عندَما روى لهما منصور وعدلي ما حصلَ معهما في حصّةِ الفنِّ.

التقى أربعتُهُمْ مساءَ يومِ الجمعةِ تحتَ شجرةِ الخرّوبِ، بعدَ أنْ وصلتْ إلى كلِّ واحدٍ منهُمْ رسالةٌ عبرَ هاتِفِهِ، دعاهُمْ فيها جابر إلى اجتماعٍ مستعجلٍ. جاءَ في الرّسالةِ: أصدقائي الّذينَ اختارَهُمْ حرّاسُ دربِ التّبّانةِ لخدمةِ الشّمسِ المنيرةِ للمحافظةِ على صحّتِها، أدعوكُمْ إلى اجتماعٍ عاجلٍ السّاعةَ الرّابعةَ بعدَ العصرِ فوقَ قمّةِ العاصورِ، أعلى جبلٍ في الأراضي الواقعةِ بينَ جبالِ الخليلِ والقدسِ جنوبًا، وجبالِ الجليلِ شمالاً، تحتَ شجرةِ الخرّوبِ الّتي سيرتفعُ سلّمٌ منها إلى الشّمسِ، لنغسلَ وجهها.

لقدْ تسلّمَ كلُّ واحدٍ منهُمْ رسالتَهُ بمنتهى الجدّيّةِ، حتّى عدلي نفسهُ، فقدْ كانَ أثرُ تجربتِهِ في حصّةِ الفنِّ لمْ يفقدْ مفعولَهُ بعدُ، بلْ كانتْ تلكَ التّجربةُ قدْ وضعتْ عدلي أمامَ نفسِهِ، فقرّرَ أنْ يُنْفِقَ نصفَ ساعةٍ قبلَ

النّومِ يفكّرُ فيها بجدوى المقالبِ الّتي يصنعُها بزملائِهِ. لكنّهُ لمْ يكفَّ، في ذاتِ الوقتِ، عنْ لومِ رافيا والفنّانِ السّودانيِّ، فهما المسؤولانِ المباشرانِ عنْ تعريضِ سمعتِهِ أمامَ الطّلّابِ للخطرِ!

8
أخي صافي

وجودُ كلبٍ لونُهُ أبيضُ ببقعٍ سوداءَ كبيرةٍ على ظهرِهِ وبطنِهِ، حتّى ليبدو مجسّمًا صغيرًا لبقرةٍ، مع ثلاثةِ أولادٍ وبنتٍ في خدمةِ الشّمسِ المنيرةِ بدا ضروريًّا.

فكّرتُ في نفسي... إنَّ منْ حقِّ صافي أنْ يحلمَ بأنْ يصيرَ بحّارًا مادامَ صاحبُهُ ممتلئًا بحبِّ المسطّحاتِ المائيّةِ منْ بحارٍ وأنهارٍ وبحيراتٍ ومحيطاتٍ. ومنْ حقِّهِ أيضًا أنْ يصيرَ صائدًا للأفاعي والفئرانِ مادامَ

صاحبُهُ صائدَ نجومٍ، أو رائدَ فضاءٍ مادامَ صاحبُهُ مولعًا بمراقبةِ الكواكبِ. لقدْ خيّرتُهُ بينَ أنْ يكونَ حارسَ الفصولِ، أو بوّابًا على مداخلِ الكواكبِ ليحرسَ أقمارَها.

ناديتُهُ وأنا مستلقٍ في فراشي، فقفزَ فوقَ الأغطيةِ، وأخذَ يلحسُ وجهي. قلتُ لهُ: اجلسْ بهدوءٍ. علينا أنْ نتحدّثَ مثلَ بالغيْنِ بينَ حينٍ وآخرَ. هَلْ تفضّلُ يا صافي أَنْ تراقبَ حركةَ الرّيحِ وهيَ تصيرُ شرقيّةً جافّةً، فنودّعُ معها الخريفَ الأصفرَ في طريقِنا إلى الشّتاءِ الأزرقِ، أم تفضّلُ مراقبتَها وهيَ تصيرُ خماسينيّةً فنودّعُ معها الرّبيعَ الأخضرَ المزهرَ ونذهبُ إلى الصّيفِ المتوهّجِ؟ أمْ هلْ تحبُّ يا صافي أنْ تحرسَ أقمارَ الكواكبِ؟ وهلْ تفضّلُ حراسةَ الأقمارِ الأربعةِ الأكثرِ شهرةً للمشتري المعروفةِ بـأقمارِ "غاليليو" أمْ أقمارِ المشتري الأربعةِ والسّتّينَ كلِّها؟

لقدْ نبحَ صافي أكثرَ منْ مرّةٍ، إجابةً عنْ كلِّ سؤالٍ وجّهتُهُ لهُ، فلمْ أفهمْ ماذا اختارَ بالضّبطِ، فأجّلتُ القرارَ بشأنِ مهامِّهِ حتّى أستشيرَ أفرادَ اللّجنةِ، وحتّى ذلكَ الوقتِ منحتُهُ حريّةَ التّصرّفِ، كيْ يستمتعَ بوقتِهِ قبلَ أنْ تتراكمَ عليهِ المهمّاتُ التّي سيتطلّبُها عملُهُ الجديدُ.

شجّعتُهُ على الانطلاقِ مع كلابِ الحارةِ، ولمْ أسألْهُ منْ يصاحبُ منَ

الكلابِ. لمْ أسألْهُ عنْ سببِ تأخّرِهِ خارجَ البيتِ كلَّ ليلةٍ؛ أينَ يقضي وقتَهُ؟ وماذا يفعلُ؟ وتركتُ لهُ خيارَ النّومِ مفتوحًا في أيِّ مكانٍ، فواظبتُ على تركِ البابِ مواربًا، لكي يستطيعَ أنْ يبيتَ في غرفتي، أوْ على سريري، أوْ فوقَ قدميَّ، أوْ في الصّالةِ، ولمْ أغضبْ عندَما قضى إحدى اللّيالي ذاتَ مرّةٍ تحتَ داليةِ العنبِ، أوْ فوقَ الصُّوفا أوْ عندَ مدخلِ البيتِ بجانبِ أحواضِ النّعناعِ والرّيحانِ.

أذكرُ يومَ التقيتُ بصافي، عدتُ في أحدِ الأيّامِ منَ المدرسةِ فسمعتُ صوتًا خافتًا صغيرًا مثلَ صوتِ رضيعٍ ينبعثُ منْ مكانٍ ما. وعندَما بحثتُ جيّدًا، عثرتُ على كتلةِ لحمٍ صغيرةٍ مغطّاةٍ بغطاءٍ أصفرَ في كرتونةِ المدفأةِ الّتي اشتراها أبي قبلَ أيّامٍ، وبالقربِ منَ الكرتونةِ وضعتْ أمّي صحنَ حليبٍ. تحسّستُ رأسَهُ. ارتعشَ في بادئِ الأمرِ ثمَّ استسلمَ ليدي وغرقَ في النّومِ. أخبرتْني أمّي أنَّ أبي وجدَهُ في الطّريقِ وهوَ ذاهبٌ في الصّباحِ الباكرِ إلى العملِ، وجدَ جروًا بعينيْنِ مغمضتيْنِ ولحمٍ طريٍّ يرتعشُ منَ البردِ؛ فأحضرَهُ إلى البيتِ عندَما عادَ لأخذِ غدائهِ قبلَ أنْ يعودَ مجدّدًا ليكملَ عملَهُ في ورشةِ البناءِ.
تشاورتُ مع أمّي حولَ اسمٍ للجروِ، فكّرنا بأسماءٍ كثيرةٍ.

قلتُ لأمّي: لقد وعدتِني أكثرَ منْ مرّةٍ أنّكِ ستأتينَ لي بأخٍ، لكنّكِ إلى الآن لمْ تفي بوعدِكِ! قلتِ إنّنا سنسمّيهِ صافي، وذهبتِ إلى المستشفى أكثرَ منْ مرّةٍ بعدَ أنِ انتفخَ بطنُكِ، وعدتِ إلى البيتِ دونَ أنْ تُحضري أخي صافي.

كنتُ في الصّفِّ الأوّلِ، ولمْ أكنْ أفهمُ أنَّ كلامي سيسبّبُ الحزنَ لأمّي.

بعدَ سنواتٍ، عرفتُ أنّهُ في كلِّ مرّةٍ ذهبتْ فيها أمّي إلى المستشفى ببطنٍ منفوخٍ كنتُ أخسرُ أخًا يرحلُ عنِ الكونِ.

قلتُ لها ذلكَ اليومَ: سأُسمّي هذا الجروَ "صافي"، وسيصيرُ منَ الآنَ فصاعدًا، أخي... أخي صافي.

٩

مصنع الذّكريات

قـالَ جدّي: يا بنيّ، كلُّ هذا سيصبحُ ذكرياتٍ. دموعُكَ أيضًا ستصبحُ ذكرياتٍ.

حضَنَني جدّي، فشممتُ رائحةَ كوفيّتِهِ وعباءتِهِ، وسحّتْ دمعةٌ منْ عينيْهِ على كفِّ يدي، وكنتُ أعرفُ أنّها ستصيرُ ذكرياتٍ هيَ الأُخرى.

منذُ رحيلِ أمّي، تعلّمتُ كيفَ تُصنعُ الذّكرياتُ. كلّما فكّرتُ بالذّكرياتِ، كنتُ أتذكّرُ قوالبَ المعمولِ الّتي كانتْ أمّي تضعُ فيها عجينةَ الطّحينِ

والسّميدِ المحشوّةِ بالتّمرِ والفستقِ الحلبيِّ واللّوزِ... قوالبَ على شكلِ قلوبِ حبٍّ، وقوالبَ على شكلِ نجماتٍ، وقوالبَ على شكلِ ورودٍ، وقوالبَ شكلُها أسطوانيٌّ، وقوالبَ دائريّة. وضعتُ دمعةَ جدّي الّتي سحّتْ على يدي في قالبٍ على شكلِ قلبِ حبٍّ، وفي داخلِ الدّمعةِ حشوتُ حبّةَ لوزٍ. أمّا كلامُ جدّي فوضعتُهُ في قالبٍ على شكلِ نجمةٍ، وحشوتُ النّجمةَ بالفستقِ الحلبيِّ. الآنَ أتذكّرُ كلامَ جدّي، فتذوبُ في روحي حبّةُ معمولٍ على شكلِ نجمةٍ بطعمِ الفستقِ الحلبيِّ، وتذوبُ دمعتُهُ في روحي بطعمِ اللّوزِ.

لقدْ برعتُ في صناعةِ الذّكرياتِ، وفي تعليبِها، وفي لفِّها في ورقٍ ملوّنٍ. ألفُّ النّجومَ والقلوبَ والزّهورَ والأشكالَ المختلفةَ للذّكرياتِ في أوراقٍ ملوّنةٍ، وأحتفظُ بها في صندوقٍ خاصٍّ، كلّما جاعتْ روحي، سحبتُ الصّندوقَ منْ خزانتي، فتحتُهُ واخترتُ ما تحتاجُهُ روحي وأكلتُهُ.

أكثرُ ما أحتاجُهُ، ذكرياتي عنْ أمّي غزالة الّتي لولاها ما احتجتُ إلى مصنعِ الذّكرياتِ.

لوْ كانتْ أمّي غزالة حيّةً لاكتفيتُ بأكلِ الكعكِ. هذا ما يحدثُ مع الأطفالِ الّذينَ يفقدونَ أمّهاتِهِمْ. فكّرتُ: إنّهمْ يعيشونَ بذكرياتِهِمْ عنْهنَّ... لوْ أنَّ باستطاعتي أنْ أُعلّمَ كلَّ الأطفالِ الّذينَ فقدوا أمهاتِهِمْ صناعةَ الذّكرياتِ ثمَّ لفَّها بالورقِ الملّونِ وإخفاءَها في حقائبَ خاصّةٍ،

ثمَّ أُعلّمهُمْ كيفَ يأخذونَ حاجتَهَمْ منْها كي لا يشعروا بالفقدِ!
أنا وعدلي ومنصور ورافيا نصنعُ ذكرياتِنا معًا، وكلُّ واحدٍ منّا يساعدُ الآخرَ في صناعةِ ذكرياتِهِ عنْ صديقِهِ. إنّني أتعلّمُ وأعرفُ أنَّ جهلي وتعلّمي جزءٌ منْ ذكرياتي. إنّني أُخطئُ وأصيبُ وأعلمُ أنَّ خطئي وصوابي سيكونانِ جزءًا منْ ذكرياتي، وكذلكَ صراخي... غضبي... بحثي عنْ ميزانٍ أزنُ بهِ الكلماتِ... جميعُها ستصبحُ ذكرياتٍ.
فكّرتُ كثيرًا بالذّكرياتِ عندَما نكبرُ، هلْ تظلُّ صغيرةً، أمْ تكبرُ معنا؟
فكّرتُ في طعمِها، هلْ يتغيّرُ؟ فكّرتُ بالمشاعرِ تجاهَ الذّكرياتِ، هلْ تحتفظُ بصفةٍ واحدةٍ؟ فكّرتُ بما تتركُهُ الذّكرى الواحدةُ الّتي تُحشى باللّوزِ أوْ بالفستقِ أوْ بالتّمرِ، لماذا يمكنُ أنْ يتغيّرَ مذاقُ الشّيءِ نفسِهِ في كلِّ مرّةٍ؟ فقدْ تبدو الذّكرى الحزينةُ مثلًا مفرحةً أحيانًا.
فكّرتُ بقدرةِ الإنسانِ على أنْ ينقطعَ عنْ ذكرياتِهِ، كأنْ يضيِّعَ صندوقَهُ أوْ يدفنَهُ، وفكّرتُ: لوْ أنّني أستطيعُ أنْ أحتفظَ بالأحداثِ والنّاسِ بدلاً منَ الاحتفاظِ بذكرياتي عنهُمْ. فكّرتُ: ما الجدوى منَ العملِ في مصنعٍ للذّكرياتِ لوْ كانتْ أمّي غزالة حيّةً؟
وتساءلتُ: أينَ ستذهبُ الذّكرياتُ لوْ أغلقتُ المصنعَ وصرتُ عاطلاً عنِ العملِ؟

10

الذّكريات عن الطّيران

اختارَ منصور البومةَ لأنَّ عينيْها الواسعتيْنِ تستطيعانِ التقاطَ الضّوءِ مهما اختلفتْ قوّةُ إشعاعِهِ، ولأنَّ جناحيْها النّاعميْنِ يرفرفانِ بحركةٍ إنسيابيّةٍ مثلَ طائرةٍ تنسابُ فوقَ الجبالِ والتّلالِ وبينَ الغيوم. ولأنَّ أذنيْها تعملانِ مثلَ مغناطيسٍ، تلتقطانِ أدقَّ الأصواتِ، لذا لنْ يضلَّ منصور طريقَ مرورِهِ عبرَ الحلمِ ليلتقيَ بحرّاسِ دربِ التّبّانةِ وهوَ يحملُ شعارَ البومةِ. لقدْ ضَمِنَ أنْ تكونَ طريقُهُ محاطةً بالرّؤيةِ المطمئنةِ،

معجونةً بذكرى الوضوحِ، مراقبةً بأذنيْنِ حارستيْنِ.

بدا منصور كحكيمٍ مدرَّبٍ، درّبهُ صيّادٌ ماهرٌ، لا محالةَ واصلٌ إلى غايتِهِ!

واختارَ عدلي الببّغاءَ لأنّها مثلهُ... لا تستطيعُ أنْ تعيشَ بعيدًا عنِ النّاسِ، ولأنَّ ريشَها متعدّدُ الألوانِ يعطي لمنْ تقعُ عليهِ عيناهُ شعورًا بالبهجةِ، ولأنَّ ميزتَها الأبرزَ على سائرِ الحيواناتِ أنَّها تشاركُ الإنسانَ حياتَهُ؛ فتردّدُ كلامَهُ كأنَّها منْ بني جنسِهِ.

قالَ عدلي: الببّغاءُ طائرٌ ذكيٌّ جدًّا.

سألتْهُ رافيا: ما الكلماتُ الّتي تردّدُها ببّغاؤكَ الذّكيّةُ جدًّا؟

ردَّ بابتسامةٍ واسعةٍ: فرفشْ... تعشْ... تنتعشْ.

ضحكنا ثلاثتنا. تخيّلنا ببّغاءَ بريشٍ أزرقَ وأصفرَ على مدخلِ بيتِ عدلي وهيَ تردّدُ بصوتٍ آليٍّ حادٍّ: فرفشْ... تعشْ... تنتعشْ. تفعلُ ذلكَ مثلَ أسطوانةٍ عالقةٍ فلا تسكتُ حتّى لوْ صرخْنا في وجهِها. أمّا عدلي فيقفُ أمامَها فاغرًا فاهُ ليظهرَ نابُهُ المكسورُ.

غادرتُ أنا ورافيا باكرًا منْ تحتِ شجرةِ الخرّوبِ. قرّرنا تركَ عدلي ومنصور وحدَهُما، ليصنعا ذكرياتِهما الخاصّةَ عنِ الطّيرانِ.

في صباحِ اليومِ التّالي، ذهبتُ باكرًا إلى المدرسةِ على غيرِ العادةِ، حتّى قبلَ

أنْ أسمعَ النّشرةَ الجوّيةَ. كنتُ أريدُ مراجعةَ مادّةِ المطالعةِ للامتحانِ. لمحتُ عدلي يدلفُ منْ بوّابةِ المدرسةِ الكبيرةِ متّكئًا على عكّازٍ. كانَ منصور يقفُ بجانبِ عدلي يراقبُ خطواتِهِ مثلَ أمٍّ تراقبُ خطواتِ ابنِها الأولى. أغلقتُ كتابَ المطالعةِ وركضتُ نحوَهُما، وشاركتُ منصور دورَ الأمِّ، فأخذتُ أراقبُ خطواتِ عدلي، ثمَّ جعلتُهُ يتّكئُ على كتفي.

قالَ عدلي محاولاً الابتسامَ: كلّهُ منَ البّبغاءِ.

وفهمتُ لاحقًا أنّهُ حاولَ أنْ يؤدّيَ دورَ البّبغاءِ، فتسلّقَ أغصانَ شجرةِ الخرّوبِ ثلاثَ مرّاتٍ، وردّدَ بصوتٍ آليٍّ غريبٍ: فرفشْ... تعشْ... تنتعشْ. ثلاثَ مرّاتٍ... ثلاثَ مرّاتٍ.

داخَلَهُ الغرورُ، لأنّهُ نجحَ في أوّلِ مرّتينِ، فأرادَ أنْ يحتفظَ بعددٍ أكبرَ منَ الذّكرياتِ عنْ محاولاتِ الطّيرانِ. تخيّلَ نفسَهُ بجناحيْنِ كبيريْنِ، أكبر منْ جناحيْ ببّغاءٍ، وقرّرَ في المرّةِ الثّالثةِ أنْ يطيرَ بدلاً منْ أنْ يقفزَ. سقطَ سقطةً قويّةً؛ فرأى نفسَهُ بريشٍ أزرقَ وأصفرَ وأخضرَ، وبرتقاليٍّ ورماديٍّ في دائرةٍ مختلفةِ الألوانِ. بدأتْ تكبرُ وتكبرُ حولَ رأسِهِ، وهوَ يتلوّى منَ الوجعِ تحتَ شجرةِ الخرّوبِ الّتي أخذتْ تلفُّ وتدورُ مثلَ زوبعةٍ ثمَّ تختفي، وهوَ يغمضُ عينيْهِ ويكادُ يغيبُ عنِ الوعيِ.

أخبرَنا منصور أنّهُ كانَ على عدلي أنْ يسيرَ وفقَ الخطّةِ الّتي رسماها،

فالجناحانِ للطّيرانِ، والسّاقانِ كيْ يقفا على الأرضِ الصّلبةِ بخطواتٍ ثابتةٍ بعدَ الهبوطِ، لكنّهُ كانَ قدْ نسيَ القاعدةَ.

كان عدلي مولعًا بالنّسيانِ وكانَ دائمًا يردّدُ: انسَ ما يقلقُكَ تشعرْ بالرّاحةِ. كانتْ تلكَ قاعدتَهُ المفضّلةَ.

أخبرتُهُ أنّنا فريقُ خدمةِ الشّمسِ المنيرةِ في السّماءِ، وعمّالُ مصنعِ الذّكرياتِ على الأرضِ. كلُّ ذلكَ يتطلّبُ منّا أنْ نشحنَ ذاكرتَنا ضدَّ النّسيانِ. إنَّ عملَنا كلَّهُ قائمٌ على القلبِ والعقلِ. نفكّرُ ونشعرُ لكنّنا نحاولُ دائمًا وبلا توقّفٍ ألّا ننسى.

قلتُ لهُ بحزمٍ: علينا أنْ نواجهَ ما يقلقُنا، لا أنْ نهربَ منهُ.

بعدَ أنْ أخبرَنا عدلي أنَّ الطّبيبَ قالَ إنّهُ لنْ يفكَّ جبيرةَ رجلِهِ قبلَ أسبوعيْنِ على الأقلِّ، تساءلتْ رافيا بأسفٍ: كيفَ سيطيرُ برجلٍ مكسورةٍ؟

أخبرتُهُمْ أنَّ هذا لنْ يحولَ أبدًا دونَ طيرانِ عدلي، فهوَ الآنَ يمتلكُ ذكرياتٍ عنِ الطّيرانِ بلْ ذكرياتٍ مؤثّرةً. إنّنا نحتاجُ إلى الذّكرياتِ، فهيَ وقودُ عبورِنا منْ أحلامِنا إلى حرّاسِ دربِ التّبّانةِ ومنها إلى الشّمسِ المنيرةِ. قلتُ ممازحًا: لكنّهُ لمْ يفقدْ لسانَهُ، وهذا هوَ المهمُّ.

فضحكوا...

وطلبتُ منْ عدلي أنْ يخرجَ لسانَهُ حتّى نطمئنَّ عليهِ، فرحّبَ بذلكَ

منتهى التّرحيبِ، ومدَّ لسانَهُ أقصى ما يستطيعُ.

قلتُ وأنا أدقّقُ النّظرَ بلسانِ عدلي: إنّهُ على الأقلِّ ليسَ لوحَ خشبٍ.

علّقَ منصور كمنْ يسجّلُ اكتشافًا: انظروا، جابر يحاولُ أنْ يمزحَ.

انتبهتُ لذلكَ، فاحمرَّ وجهي... نعمْ، أحاولُ أنْ أكونَ مثلَ الطّبيعةِ...

11

الشّمس

فـي الاعتدالِ الرّبيعيِّ يتساوى اللّيلُ والنّهارُ، فتخرجُ الكائناتُ منْ فصلِ الشّتاءِ ذاهبةً إلى فصلِ الرّبيعِ؛ تصحو منْ سباتِها، أشجارًا وحيواناتٍ. كلُّ عرقٍ أخضرَ سقطتْ أوراقُهُ في الشّتاءِ يفتحُ خلاياهُ كيْ تتنفّسَ وتطلقَ براعمَها. في الحادي والعشرينَ منْ آذارَ، تشرقُ الشّمسُ منْ جهةِ الشّرقِ تمامًا، وتغربُ في جهةِ الغربِ تمامًا. في هذا اليومِ، نستطيعُ أنْ نحدّدَ الشّرقَ بدقّةٍ، ولكلٍّ واحدٍ منّا علامتُهُ.

يحفظُ جابر علامتَهُ جيّدًا، إنّها في الأفقِ الشّرقيِّ منْ زاويةِ الجبلِ، في منتصفِ شجرةِ الخرّوبِ، حيثُ تلوحُ إشراقةُ شمسِ الرّبيعِ كلَّ عامٍ منْ بينِ أغصانِها، في النّقطةِ الّتي يشيرُ إليها جابر بإصبعهِ الشّاهدِ. إنّها الآنَ في أوجِ إشراقتِها. غسلتْ رافيا وجهَ الشّمسِ، ومسحتْ عينيْها بخليطٍ منَ الشّايِ الأخضرِ والأسودِ. صنعتْ لها كمّاداتٍ ساخنةً على شكلِ مخدّاتٍ صغيرةٍ، فارتسمَ جفناها مثلَ لوزتيْنِ شهيّتيْنِ، وتهدّلتْ رموشُها مثلَ مكنسةِ قشٍّ.

أشارَ جدّي نحوَ الشّمسِ قائلاً: شمسُ نيسان، مثل شتائِها، تحيي الحيوانَ والإنسانَ.

ضحكةٌ كبيرةٌ مرسومةٌ على وجهِ الشّمسِ، فقدْ قضى عدلي حلمَهُ كاملاً اللّيلةَ الفائتةَ وهوَ يقومُ بحركاتٍ بهلوانيّةٍ في مجلسِها. وقفَ على رأسِهِ، تشقلبَ، رسمَ فمًا آخرَ حولَ فمِهِ، وعينيْنِ حولَ عينيْه. ضحكتِ الشّمسُ حتّى أمسكتْ بطنَها منْ شدّةِ الضّحكِ... ضحكَ حرّاسُها كلُّهُمْ. فتحتِ الشّمسُ فمَها الّذي يشبهُ منقارَ العصفورِ فانطلقَ الضّحكُ راكضًا مثلَ طفلٍ فرِحٍ في طريقِهِ إلى المجموعةِ الشّمسيّةِ، أوْ إلى الكونِ.

أنارتِ الضّحكاتُ الشّوارعَ الرئيسةَ والفرعيّةَ... ضحكاتٌ مختلفةُ الأحجامِ على شكلِ نجماتٍ مضيئةٍ. كانَ سكّانُ الأرضِ يراقبونَ السّماءَ

في تلكَ اللّيلةِ، ويحصونَ عددَ النّجماتِ. عدَّ الأولادُ الصّغارُ كثيراً منها، وتناثرتْ شهبٌ مضيئةٌ، فلاحقَها الأطفالُ بأعينِهِمْ. قفزوا منْ أسرّتِهِمْ إلى أسطحِ المنازلِ يلوّحونَ لها. كانتْ مثلَ ألعابٍ ناريّةٍ تبعثُ البهجةَ.

قالَ جدّي: كانتِ السّماءُ فرحةً ليلةَ البارحةِ يا جابر. هل رأيتَها؟

هززتُ رأسي بالإيجابِ.

هرشَ جدّي رأسي بأصابعِهِ الكبيرةِ، وضمّني إلى صدرِهِ قائلاً: في نيسان تختفي الأحزانُ.

شعرتُ بالفخرِ، بي وبأصدقائي، لأنّنا أسعدْنا السّماءَ والأرضَ، لكنّي لمْ أُخبرْ جدّي أنّني كنتُ هناكَ، أعملُ في مطبخِ الشّمسِ، ويأتمرُ بأمري خمسونَ ساقيًا يغلونَ البابونجَ، واليانسونَ، والكمّونَ، والقرفةَ، والنّعناعَ، والميرميّةَ، والزّنجبيلَ في قدورٍ كبيرةٍ، وخمسونَ طبّاخًا، يطهونَ العدسَ، والخبّيزةَ، والعلكَ، والحمّيضَ، والسّبانخَ، والسّلقَ في طناجرَ كبيرةٍ. يلعبونَ مثلَ بهلواناتٍ بالسّمّاقِ، والكمّونِ، والملحِ، والكاري الحارِّ، والكاري الحلوِ، والشّطّةِ المجروشةِ، والفلفلِ الأسودِ، واللّوميِّ، وورقِ الغارِ.

ركّزتُ تفكيري، فانتشرتْ ذكرياتُ الرّائحةِ؛ رأيتُ أمّي غزالة في الشّتاءِ الباردِ، تحملُني على صدرِها، وتحرّكُ العدسَ في القِدْرِ؛ فتدخلُ في

أنفي روائحَ الكمّونِ، والبصلِ، والجزرِ، والكوسا، والثّومِ. جمعتُ قطعًا صغيرةً منَ الذّكرياتِ مثل نجماتٍ صغيرةٍ وأخذتُها معي. مددتُ يدي، فتحتُها... فقالَ ليَ الحارسُ: اعبُرْ يا طبيبَ الأعشابِ.

خلفي... كانَ يقفُ منصور، وعلى ظهرِهِ حقيبةٌ ممتلئةٌ بالحِكَمِ. قالَ منصور للحارسِ: للشّمسِ ثلاثُ نوافذَ، أغلقوا اثنتيْنِ وافتحوا الثّالثةَ، منْها سيدخلُ الهواءُ العليلُ لروحِها. الشّمسُ إنسانٌ، فاعتنوا بصحّتِها. الشّمسُ تغضبُ، فدعوها تنامُ تسعينَ يومًا في السَّنةِ، دقّاتُ قلوبِ سكّانِ كوكبِ الأرضِ تُحْييها. الحروبُ على الأرضِ... الخساراتُ... كسرُ القلوبِ... جوعُ البطونِ... اختفاءُ الضّحكاتِ كوابيسُ في مناماتِها. تفرحُ الشّمسُ بفرحِ الإنسانِ، وتحزنُ لحزنِهِ. في النّهرِ يجري الماءُ، وفي العينِ تجري النّظرةُ، وفي القلبِ يجري الحبُّ، ومع أشعّةِ الشّمسِ يجري الأملُ.

كانتْ ليلةً طويلةً...

في النّهارِ التّالي، التقينا أنا وعدلي ومنصور ورافيا، وركضنا بعضُنا خلفَ بعضٍ... تحتَ شجرةِ الخرّوبِ، فوقَ قمّةِ العاصورِ، وكانتْ شقائقُ النّعمانِ، وزهراتُ الأقحوانِ، تتناثرُ حواليْنا، معلنةً بدءَ الرّبيعِ.

12
صانع الذّكريات

ذكرى صورةِ أبي على اللّوجِ مع امرأةٍ أُخرى، غيرِ أمّي، بثوبٍ أبيضَ تنطبعُ في رأسي. أمسكتُ بهذهِ الصّورةِ وقارنتُها بصورةِ أبي مع أمّي... أمّي مبتسمةٌ أكثرَ... هيَ أطولُ منْ أمّي.

أمّي تضعُ طرحةً فوقَ شعرِها... هيَ شعرُها مرفوعٌ إلى الأعلى.

أبي يلبسُ قميصًا مخطّطًا في صورتِهِ مع أمّي... في صورتِهِ مع المرأةِ الأخرى يلبسُ قميصًا أزرقَ. هيَ، عليَّ أنْ أذكرَ اسمَها، فصناعةُ الذّكرياتِ

تقتضي ذلكَ، اسمُها "رنا".

أمّي اسمُها "غزالة"... أريدُ أنْ أردّدَ هذا الاسمَ إلى اللّانهايةِ، لكنَّ الذّكرياتِ تقتضي النّزاهةَ.

دخلتُ مصنعي، وفكّرتُ بتلكَ الذّكرياتِ... ماذا أصنعُ بها؟ صورةُ أبي... صورةُ رنا... صورةُ أمّي غزالة... صورُ رنا مكانَ صورِ غزالة. القميصُ المخطّطُ إلى جانبِ القميصِ الأزرقِ... الثّوبانِ الأبيضانِ إلى جانبِ بعضهِما... الشَّعْرُ وفوقَهُ الطّرحةُ والشَّعْرُ دونَها... الأخُ الصّغيرُ بعدَ عام... كيفَ أصنعُ الذّكرى عنْ هذا الصّغيرِ؟ قلتُ في نفسي: عملُ صانعِ الذّكرياتِ عملٌ صعبٌ. صانعُ الذّكرياتِ شجاعٌ، يحتفظُ بذكرياتٍ يطالبُهُ قلبُهُ وعقلُهُ بالتّخلّصِ منها. عاملُ الذّكرياتِ مخلصٌ، لا ينسى ذكرياتِهِ مع منْ أحسنوا إليهِ. عاملُ الذّكرياتِ صادقٌ، يعترفُ بكلِّ الذّكرياتِ حتّى وهيَ لا تعجبُهُ.

فتحتُ ملفًّا لذكرياتِ رنا، المرأةِ الّتي حلّتْ محلَّ أمّي غزالة، وملفًّا لذكرياتِ كريم، وللجروِ الصّغيرِ الّذي حلَّ محلَّ إخوةٍ كنتُ أنتظرُهُمْ. فتحتُ الملفّيْنِ بصعوبةٍ. كانتِ الصّفحاتُ متصلّبةً، ترفضُ أنْ تمشيَ معَ أصابعي، وكلّما خطّطتُ عليها كلامًا انمحى، وكلّما تهاونتُ في فتحِ

الصّفحاتِ انغلقتْ منْ تلقاءِ نفسِها. قاومتُ حركةَ الصّفحاتِ، أمسكتُ القلمَ بقوّةٍ وبأصابعَ أكثرَ صلابةً.

كتبتُ أوّلَ ذكرى عنْ رنا: لا تصنعُ العدسَ على طريقةِ أمّي، لكنَّ طعمَهُ جيّدٌ. كتبتُ أوّلَ ذكرى عنْ كريم: يبكي كثيراً، ويضحكُ أحيانًا، خدّاهُ مثل تفّاحتيْنِ.

ذاتَ مرّةٍ، كنّا وحدَنا، أنا ومنصور، فسألَني سؤالاً جعلني أراهُ عاريًا منْ رداءِ الحكمةِ الّذي لا ينفكُّ يلبسُهُ: هلْ على صانعِ الذّكرياتِ أنْ يكونَ متفرّغًا؟

أجبتُهُ: عليهِ أنْ يجدَ عملاً إضافيًّا حتّى يؤمّنَ المؤونةَ لبيتِهِ.

قال لي: أتقترحُ أنْ يعملَ سائقًا أوْ طبّاخًا؟

حدّثني عنْ صعوبةِ صناعةِ الذّكرياتِ عنْ أبيهِ الّذي لمْ يزرْهُ في السّجنِ منذُ عاميْنِ، فقدْ منعَهُ الاحتلالُ منْ زيارتِهِ لأنّهُ مازالَ لا يحملُ هويّةً.

حاولتُ أنْ أخفّفَ عنهُ بقولي: سواءٌ أحملتَ هويّةً أمْ لمْ تحملْ، هناكَ دائمًا حجّةٌ كيْ يمنعوكَ.

قالَ: أخشى أنْ أنسى صورةَ أبي. فرأيتُ صورةَ الحكيمِ عندَما يحزنُ، فأجبتهُ بسرعةٍ: إنَّ القاعدةَ الأولى في صناعةِ الذّكرياتِ هيَ مقاومةُ النّسيانِ. اكتبْ له الرّسائلَ بشكلٍ يوميٍّ. حدّثْهُ عنْ كلِّ شيءٍ بالتّفصيلِ.

استطردَ قائلاً: ربّما سيمنعُ الاحتلالُ وصولَ رسائلي إليهِ.
رددتُ: ليسَ المهمَّ في تلكَ الرّسائلِ أنْ تصلَ أوْ لا، المهمُّ أنْ تكتبَها. أنا أعلمُ أنَّ رسائلي لنْ تصلَ إلى غزالة أبدًا، لكنّي لنْ أكفَّ عنْ كتابتِها طوالَ حياتي.
سألني عنْ صانعِ الذّكرياتِ مرّةً أخرى: ألا يملُّ؟
أجبتُهُ: إنّنا نصنعُ الذّكرياتِ لتلكَ الغايةِ بالضّبطِ. إنّنا نقاومُ المللَ مثلَما نقاومُ النّسيانَ. الإنسانُ يعيشُ بينَ الماضي الّذي يصيرُ ذكرياتٍ بمجرّدِ إغلاقِهِ لبابِهِ، وبينَ الحاضرِ الّذي يقضيهِ في واقعٍ يقاومُ فيه كيْ يعيشَ. يحتاجُ الإنسانُ لخلاصةِ الماضي كيْ يعيشَ بها الحاضرَ وحتّى تمنحَهُ القوّةَ لأجلِ أحلامٍ يتمنّى تحقّقَها في المستقبلِ، وسرعانَ ما يصيرُ الحاضرُ ماضيًا، وجزءًا منَ الذّكرياتِ. إنَّ كلَّ يومٍ يمضي هوَ ذكرياتٌ.
ثمَّ سألتُهُ: ألا ترى وأنتَ تقفُ في المصنعِ أمامَ شريطِ خطِّ الإنتاجِ كيفَ أنَّ الأيّامَ تمرُّ منْ أمامِ عينيْكَ مثلَ علبٍ صغيرةٍ متتاليةٍ سرعانَ ما تسقطُ في برميلٍ كبيرٍ، يصيرُ خلفَكَ؟
أجابني منصور: بلى. فتخيّلتُ صورةَ الأيّامِ تمرُّ في رأسِهِ.
قلتُ لهُ: تخيّلْ نفسَكَ بلا ذاكرةٍ. تعيشُ كلَّ يومٍ بيومِهِ، مفصولاً عنِ اليومِ الّذي قبلَهُ واليومِ الّذي بعدَهُ؟ الذّكرياتُ وحدَها تجعلُ للأيّامِ

قيمةً. منْ دونِها سنكونُ كمنْ يعيشُ كلَّ يومٍ في علبةٍ جديدةٍ مفصولةٍ عنِ الّتي قبلَها والّتي بعدَها، لكنّنا منْ خلالِ الذّاكرةِ ننتقي الأوانيَ الأحبَّ إلينا، بكاملِ إرادتِنا، لنعبّئَ فيها حياتَنا.

قالَ منصور وقدْ عادَ إليهِ رداءُ حكمتِهِ: الذّكرياتُ وطنٌ. الأيّامُ المفصولةُ عنْ بعضِها مستوطناتٌ.

نظرتُ نحوَهُ وسألتُهُ: وماذا تظنُّ أنَّ صانعَ الذّكرياتِ يفعلُ؟

أجابَ بسرعةٍ: يجعلُ لحياتِهِ وحياةِ مَنْ حولَهُ معنىً.

أخذَ منصور نَفَسًا عميقًا أظهرَ ارتياحَهُ؛ فنقلَ إليَّ شعورًا مماثلاً بالرّاحةِ.

فكّرتُ في نفسي: كانَ كلامي مفيدًا للحكيم. نهضتُ ونهضَ منصور وهوَ ينفضُ بنطالَهُ، واتّفقنا أنْ لا ننامَ هذهِ اللّيلةَ دونَ أنْ نكتبَ هذا الكلامَ في رسائلَ نرسلُها إلى وجهاتٍ مختلفةٍ.

13
لعبة الذّكريات

فـي العطلةِ الصّيفيةِ، استرجعتُ ذكرياتي عنْ فصلِ الشّتاءِ. كانَ فصلاً مليئًا بالعملِ.

سافرتُ في الشّتاءِ بينَ الأرضِ والسّماءِ، كأنَّ لي سريرًا على الأرضِ أحيا فوقَهُ نهاري، وآخرَ أنامُ عليهِ ليلي بالقربِ منْ أمّي غزالة، متوسّدًا ذراعَها، في السّماءِ. وفي رحلتي بينَ المكانيْنِ أخذتُ معي أصدقائي، رافيا وعدلي ومنصور.

بدا الشّتاءُ مثلَ شاشةِ التّلفازِ المغلقةِ والمعتمةِ. الضّوءُ الوحيدُ فيها يأتي منْ داخلِها. كأنَّ الشّاشةَ هي الحياةُ نفسُها وأنا خارجَها، وفي الدّاخلِ تتكوّنُ حياةٌ أُخرى، لونُها أسودُ. كنتُ أحاولُ أنْ أجعلَها أقلَّ عتمةً بتكرارِ ما أحاولُ إقناعَ نفسي بهِ وأنا أقفُ أمامَ صورتي في المرآةِ مبتسمًا قائلاً لها: أنا بخيرٍ. لكنْ في الحقيقةِ... أنا غيرُ ذلكَ، فأنا أشعرُ بالحزنِ. وأنا خائفٌ أيضًا.

أحسستُ بالخوفِ، فنحنُ على أبوابِ الصّفِّ العاشرِ. بدايةَ العامِ القادمِ سيوزّعونَنا على مدارسَ مختلفةٍ. قدْ يتركُني عدلي ومنصور كلاهُما أو أحدُهما إلى مدرسةٍ أخرى. خشيتُ منْ ذلكَ. واحدٌ منّا سيبقى وحيدًا. ورافيا؟ في كلِّ الأحوالِ فإنَّ مدرستَها في مكانٍ غيرِ قريبٍ منْ أيِّ مدرسةٍ قدْ نذهبُ إليْها. إنّهمْ يبنونَ مدارسَ البناتِ بعيدةً عنْ مدارسِ الأولادِ ليجعلوا نقاطَ الالتقاءِ بينَ البناتِ والأولادِ وقتَ الذّهابِ إلى المدارسِ والعودةِ منْها متباعدةً.

في إحدى المرّاتِ، قالتْ رافيا: سواءٌ أكانتِ المدرسةُ قريبةً أمْ بعيدةً... أمّي تقولُ إنّني كبرتُ، وإنّها أعطتني مهلةً طويلةً وهيَ تغضُّ البصرَ عنْ لعبي معَ الأولادِ. كانتْ تقصدُكُمْ أنتمْ يا أولادُ.

وأشارتْ بيَدِها إليْنا محاولةً أنْ تجعلَ كلامَها يبدو عاديًّا ومنطقيًّا، كأنّهُ

يحدثُ بسببِ بعضِ تقلّباتِ الطّقسِ، كالمطرِ الّذي يحدثُ لأنَّ السّماءَ تلبّدتْ بالغيومِ... لقدْ كبرتْ رافيا، وستتوقّفُ عنِ اللّعبِ معَ الأولادِ.

تابعتْ كلامَها: لنستغلَّ هذا الصّيفَ. قدْ يكونُ هذا آخرَ صيفٍ نلعبُ فيهِ تحتَ شجرةِ الخرّوبِ.

خفتُ كثيرًا. ستكبرُ رافيا. وسأتوقّفُ عنْ صناعةِ الذّكرياتِ معَها. حامتْ في رأسي صورةُ أمّي وهيَ تعدّدُ على أصابعي منْ سيجعلونَني أقلَّ وحدةً، لقدْ كانتْ رافيا على رأسِ القائمةِ.

خفتُ كثيرًا، قدْ ينتقلُ عدلي أوْ منصور أيضًا، أوِ الاثنانِ معًا... هلْ سأظلُّ وحدي؟

عينا شمسِ الصّيفِ ملتهبتانِ. وجهُها متوهّجٌ. أشرنا أنا وعدلي ومنصور ورافيا نحوَها، وفكّرْنا: كيفَ سنمدُّ السّلّمَ منْ فوقِ قمّةِ جبلِ العاصورِ إلى جفنيْها المحمرّيْنِ.

نادانا عدلي: تعالَوْا! سنلعبُ لعبةً.

أخبرَنا أنّهُ فكّرَ لساعاتٍ طويلةٍ، وعلى مدارِ ليالٍ في تصميمِ هذهِ اللّعبةِ.

هجستُ في نفسي: عدلي الضّحوكُ المنكشفُ ليسَ كما يبدو عليهِ. ليسَ كما اعتقدْتُ دائمًا. إنّهُ عميقٌ على غيرِ ما يدلُّ ظاهرُهُ!

قالَ عدلي: لنصنعْ ذكرياتِنا هذا الصّيفَ. لنلعبْ.

وشرحَ لنا لعبتَهُ...

- فكرةُ اللّعبةِ: الوصولُ إلى الشّمسِ للحصولِ على الأملِ.

- المحاربونَ لصالحِ الأملِ: الممرّضةُ، والحكيمُ، والمهرّجُ، وصانعُ الذّكرياتِ.

- المحاربونَ المعاكسونَ للأملِ: النّسيانُ، والكابوسُ.

- نقطةُ العبورِ إلى الشّمسِ: الحلمُ.

- العاملونَ على نقطةِ العبورِ: حرّاسُ دربِ التّبّانةِ.

شرحَ لنا عدلي مهامَّ اللّاعبينَ...

- مهمّةُ منْ يقعُ عليهِ دورُ صانعِ الذّكرياتِ؛ أنْ يجمعَ أكبرَ عددٍ ممكنٍ منَ الذّكرياتِ.

- مهمّةُ الممرّضِ والحكيمِ والمهرّجِ تتوزّعُ على محاولاتِ إخفاءِ صانعِ الذّكرياتِ، فلا ينكشفُ أمامَ النّسيانِ والكابوسِ اللّذيْنِ سيحاولانِ أنْ يحولا دونَ مواصلةِ رحلتِهِ إلى الشّمسِ. سيساعدُهُ الممرّضُ والحكيمُ والمهرّجُ في الوصولِ إلى حرّاسِ دربِ التّبّانةِ دونَ أنْ يخسرَ الذّكرياتِ الّتي جمعَها.

- وواضحٌ أنَّ مهمّةَ النّسيانِ هيَ أنْ يقبضَ على صانعِ الذّكرياتِ، بينَما

سيمنعُ الكابوسُ دخولَ صانعِ الذّكرياتِ إلى عالمِ الأحلامِ، وربّما يضلّلُهُ فيأخذُهُ إلى عالمِ الكوابيسِ فيضيعُ نومُهُ سدىً تلكَ اللّيلةِ.

قالَ عدلي: وقوعُ صانعِ الذّكرياتِ في يدِ الكابوسِ سيؤخّرُهُ عنِ الوصولِ إلى الشّمسِ ليلةً كاملةً، هذا يعني أنّهُ سيضطرُّ أنْ ينتظرَ النّهارَ التّاليَ كاملاً كيْ يحلَّ اللّيلُ فيخلدَ إلى النّومِ، ويحاولَ العبورَ مجدّدًا.

فكّرَ بصوتٍ عالٍ كأنّهُ يريدُ أنْ يتأكّدَ منْ دورِ النّسيانِ الّذي كانَ عدلي نفسُهُ يخضعُ لهُ في حياتِهِ، فبدا كخبيرٍ متخصّصٍ: النّسيانُ يأكلُ الحياةَ. يأكلُ الذّكرياتِ الّتي تقعُ بينَ يديْهِ، لأنَّ حياتَهُ سوفَ تنتهي لوْ أنَّ الذّكرياتِ بقيتْ على قيدِ الحياةِ؛ لذلكَ فمهمّتُهُ تتجلّى بالقضاءِ على الذّكرياتِ نهائيًّا، بلا رحمةٍ. هلْ نسمحُ لهُ بذلكَ؟ سألَنا هذا السّؤالَ كشخصٍ يذكرُ شيئًا، ويخشى أنْ ينساهُ في الوقتِ نفسِهِ.

أجبناهُ بصوتٍ واحدٍ: لا، طبعًا، أبدًا لنْ نسمحَ لهُ.

سألتُهُ عنِ المكانِ الّذي سيخفي فيه صانعُ الذّكرياتِ ذكرياتِهِ، فقالَ بأنّهُ لمْ يفكّرْ بذلكَ، وطلبَ منّا أنْ نقترحَ أفكارًا. فكّرنا بصوتٍ مرتفعٍ، كلُّ واحدٍ فينا قدّمَ اقتراحاتِهِ، وناقشناها جميعَها، فكانَ اقتراحُ رافيا هوَ أكثرَ اقتراحٍ حظيَ بالإجماعِ، وهوَ أنْ نعلّقَ الذّكرياتِ على أغصانِ شجرةِ الخرّوبِ.

قلتُ مضيفًا إلى اقتراحِ رافيا: وستكونُ الذّكرياتُ على شكلِ قطعِ المعمولِ.

نقرَ عدلي على رأسِهِ كمنْ فاتَهُ أمرٌ ما: عليْنا أنْ نبحثَ عنْ ثلاثةِ لاعبينَ إضافيّينَ. فاللّعبةُ تحتاجُ إلى سبعةِ لاعبينَ.

14

ذكريات جدّي

عـدتُ إلى البيتِ سعيدًا. إنَّ الأفكارَ الحزينةَ الّتي كادتْ أنْ تطفوَ على السّطحِ مجدّدًا، بعدَ انقشاعِ عتمةِ الشّتاءِ، بدّدَها المهرّجُ عدلي بلعبتِهِ. غلتِ الحماسةُ في روحي مجدّدًا مثلَما يغلي في شمسِ تمّوزَ الماءُ في الكوزِ. قلتُ لخالتي رنا: سألاعبُ كريم.

ابتسمتْ... كانتْ تطوي الملابسَ الّتي جمعَتْها عنِ الحبلِ قبلَ قليلٍ، فبدا ملمسُها دافئًا مثلَ رغيفِ الخبزِ الّذي خرجَ لتوّهِ منَ الفرنِ.

أخرجتْ كريم منْ سلّةِ الغسيلِ، ورفعتْ مؤخّرتَهُ قربَ أنفِها، وطلبتْ منّي أنْ أنتظرَ قليلاً حتّى تبدّلَ لهُ ملابسَهُ. وهيَ تضعُ كريم على صدري، حدّثتْني عنْ حالةِ الطّقسِ.

قالتْ إنّها سمعتْ أنَّ رياحًا خماسينيّةً محمّلةً بالأغبرةِ ستهبُّ هذهِ اللّيلةَ، وسألتْني: هلْ أغسلُ ملابسَ أخيكَ؟ أمْ أؤجّلُ الموضوعَ كلَّهُ، كيْ لا أصحوَ فأجدَ الغسيلَ قدْ صارَ عندَ الجيرانِ؟ ونظرتْ نحوَ الملابسِ الّتي خلعتْها عنْ كريم للتوِّ.

أخبرتُها أنَّ تقريرَ النّشرةِ الجوّيةِ الّتي سمعتُها السّاعةَ السّادسةَ جاءَ فيهِ أنَّ الطّقسَ قدْ غيّرَ رأيَهُ، فالرّياحُ انحسرتْ واتّجهتْ نحوَ الشّمالِ. إنَّ منطقةَ البحرِ الأبيضِ نجتْ منَ الرّياحِ المحمّلةِ بالغبارِ، لكنّي قلتُ لها: لا تثقي بالطّقسِ، فهوَ متقلّبٌ. لذا نصيحتي، انشري ثيابَ كريم في الدّاخلِ.

ضحكَ أبي وأنا أُناغي كريم. كانتْ علاماتُ الرّضى تظهرُ على وجهِهِ، وهوَ يراني أتحدّثُ عنِ الطّقسِ، وأنا أكثرُ مرحًا، وأحملُ أخي الصّغيرَ وألاطفُهُ.

جلستُ إلى جانبِ جدّي على السّطحِ. اعتادَ جدّي أنْ يجلسَ على سطحِ المنزلِ في الصّيفِ. يصعدُ الدّرَجَ متّكئًا على الدّرابزين، ويحملُ حصيرةً صغيرةً خيوطُها مزيّنةٌ بألوانٍ مختلفةٍ، ومرسومٌ عليْها جملٌ وأشجارُ نخيلٍ. كلَّ عامٍ تصيرُ خطواتُ جدّي أثقلَ. وكلّما حاولَ أنْ يتكلّمَ عنْ أثرِ مرورِ الزّمنِ في صحّتهِ، لخّصَ كلَّ مخاوفهِ في جملةٍ واحدةٍ: أخشى أنْ أعجزَ عنْ صعودِ الدّرَجِ يومًا ما.

منذُ طفولتي وأنا أرافقُ جدّي في جلساتهِ على السّطحِ. ذكرياتي فوقَ السّطحِ كثيرةٌ، تبدأُ بأوّلِ ضربةٍ أصابتْني منْ بابِ السّطحِ، فسالَ الدّمُ منْ جرحٍ في جبيني، ثمَّ تمرُّ بأكلِ عرانيسِ الذُّرةِ المشويّةِ الّتي كانتْ تُحضّرُها أمّي لنأكلَها أنا وجدّي، ونحنُ نراقبُ النّجومَ.

جدّي هوَ الرّاصدُ الجوّيُّ الأوّلُ في الحارةِ. منهُ تعلّمتُ كيفَ أكلّمُ السّماءَ، وماذا أقولُ لها. تعلّمتُ منهُ أيضًا عنْ حركاتِ الرّيحِ، وعلاماتِ تغيّرِ الجوِّ ودلالاتِها.

ذاتَ مرّةٍ قالَ لي: إذا طلعتِ الشّمسُ ساطعةً في عصرِ أحدِ أيّامِ الشّتاءِ، فتوقّعْ ليلةً غزيرةَ المطرِ.

ومع جدّي، راقبتُ مواسمَ مرورِ أسرابِ الطّيورِ المهاجرةِ منْ سماءِ القريةِ؛ اللّقالقِ وغربانِ البحرِ والنّوارسِ وطيورِ الفرِّ. لطالَما ردّدَ جدّي: حتّى الطّيورُ عرفتْ أهميّةَ موقعِ فلسطينَ المميّزِ بينَ القارّاتِ الثّلاثِ: آسيا وأوروبا وأفريقيا، فاختارتْهُ طريقًا لها.

راقبتُ مع جدّي نجمةَ الزّهرة الّتي يشتدُّ لمعانُها في فصلِ الشّتاءِ، ابنةَ عمِّ القمرِ، أحبَّ الكواكبِ إلى قلبي، كوكبَ الحبِّ والفنِّ والجمالِ.

ومنْ جدّي عرفتُ أيضًا كيفَ أنَّ النّجومَ تظهرُ ظهرًا في السّماءِ.

سألتُ جدّي ذاتَ يوم: عندَما يقولُ واحدٌ لآخرَ: سأريكَ نجومَ الظّهرِ، كيفَ يفعلُ ذلكَ؟ هلْ يمسكُ عصًا سحريّةً ويقولُ للنّجومِ: اظهري فتظهرُ؟

ضحكَ جدّي حتّى ظهرتْ لثّتُهُ العاريةُ منَ الأسنانِ، وأخبرَني أنَّ ذلكَ نوعٌ منَ التّهديدِ لا غيرَ. فكّرتُ طويلاً ما معنى أنْ يهدّدَ شخصٌ شخصًا آخرَ بالنّجمةِ. هلْ سيحضرُها بيدِهِ ثمَّ يلقيها على وجهِهِ كرةً ملتهبةً لتتركَ علامةً على وجهِهِ بحجمِ وشكلِ نجمةٍ؟ راقبتُ وجوهَ كلِّ منْ عرفتُهُم، لمْ يخضعْ أيٌّ منهُمْ لأيِّ تهديدٍ، فلا أحدَ في وجهِهِ نجمةٌ واحدةٌ. عرفتُ لاحقًا في درسِ البلاغةِ أنَّ هذا يُسمّى "كناية".

استقبلَنا جدّي أنا وكريم بحرارةٍ، قبّلَني على خدّي، وقبّلَ كريم على خدِّه، قبلتيْنِ بالحجمِ نفسِهِ، رغمَ أنَّ خدّي أكبرُ منْ خدِّ كريم. قالَ لي: أهلاً بحفيديَّ.

ثمَّ سألَني: ما حالُ شجرةِ الخرّوبِ؟

قلتُ لهُ: بخيرٍ. قويّةٌ، وممتلئةٌ بالثّمارِ.

راحَ جدّي يحدّثُني عنْ ذكرياتِهِ عندَ شجرةِ الخرّوبِ قائلاً: لوْ أنَّ هذهِ الشّجرةَ تتكلّمُ لقصّتْ عليكَ حكاياتٍ كثيرةً.

طلبتُ منهُ أنْ يقصَّ عليَّ واحدةً منْ تلكَ القصصِ مادامتْ شجرةُ الخرّوبِ لنْ تتكلّمَ.

سألني: هلْ حدّثتُكَ كيفَ تعرّفتُ إلى جدّتِكَ؟ كيفَ أحببتُها؟ أينَ رأيتُها أوّلَ مرّةٍ؟ كمْ كانتْ جميلةً؟ ماذا أحببتُ فيها؟

لمْ أعرفْ جدَّتي لأبي، حتّى إنّني لمْ أجدْ لها صورةً واحدةً في صندوقِ ذكرياتِ جدّي. كبرتُ فوجدتُ جدّي يعيشُ في غرفتيْنِ تطلّانِ على ساحةٍ كبيرةٍ فيها شجرةُ ليمونٍ وداليةٌ، مازالتا في مكانِهما، تكبرانِ كلَّ عامٍ، وتثمرانِ الثّمرَ نفسَهُ، الدّاليةُ صيفًا، واللّيمونةُ شهريًّا. وهي نفسُ السّاحةِ الّتي يطلُّ عليها بيتُنا أيضًا عندَما ننزلُ بضعَ درجاتٍ.

كانتْ عمّتي لمياء تعيشُ مع جدّي إلى أنْ تزوّجتْ قبلَ عامينِ، وسافرتْ إلى ألمانيا مع زوجِها الّذي يعملُ في مصنعٍ للأدويةِ. لطالَما فكّرتُ بالمصنعِ الّذي يعملُ فيه زوجُ عمّتي، هلْ يشبهُ مصنعَ الذّكرياتِ الّذي أعملُ فيهِ؟ وهلْ لديهمْ في ألمانيا أولادٌ يعملونَ في مصنعِ الذّكرياتِ مثلي؟

حكى لي جدّي قصّتَهُ مع جدّتي، أحلى البناتِ وأعذبهِنَّ، صاحبةِ القامةِ الطّويلةِ، صاحبةِ العينيْنِ العسليّتيْنِ، والجديلتيْنِ الطّويلتيْنِ البنّيتيْنِ. قالَ يصفُها: كانَ يتدلّى بجانبِ أذنيْها، ومنْ تحتِ منديلٍ مزيّنٍ بوردةٍ حمراءَ كبيرةٍ، نهرانَ منَ الخرّوبِ. كانتْ وردةً تحملُ وردةً. لطالَما ربطتُ بينَ رسمةِ عينيْها وقرونِ الخرّوبِ، وبينَ لونِ ثمارِ الخرّوبِ ولونِ جديلتيْها. ثمَّ تابعَ حديثَهُ عنْها بعينيْنِ لامعتيْنِ: كانتْ حارسةَ الشّجرةِ، ففي أعلى الجبلِ، كانَ أبوها ينصبُ خيمةً في الرّبيعِ، ويطلقُ أغنامَهُ في الجبلِ لترعى أكثرَ الأعشابِ خضرةً وطراوةً، وكانتْ تصحبُهُ ابنتُهُ المدلّلةُ الّتي لا يستغني عنْ رفقتِها. كانَ يكرّرُ دومًا أنَّ ابنتَهُ "جميلة" لنْ تغادرَ دلالَ والدِها إلّا إلى دلالٍ آخرَ؛ لذلكَ فقدْ وضعَ أبوها شروطَهُ القاسيةَ، وطلباتِهِ الكثيرةَ في وجهِ كلِّ منْ تقدّمَ إلى خطبتِها.

وأشارَ جدّي أثناءَ حديثِهِ إلى نفسِهِ مفتخرًا: لكنّني كنتُ قدّها. صورةُ جدّتِكَ جميلة، والشّمسُ تتسلّلُ منْ بينِ أغصانِ شجرةِ الخرّوبِ، وثمارُها تتدلّى منْ خلفِها، وجديلتاها تتدليّانِ كأنّهما أطولُ قرنيْنِ على الشّجرةِ، والخرافُ تلعبُ حواليْها... صورةٌ لا تُمحى منْ ذاكرتي. كانتْ جدّتُكَ جميلة ابنةَ شجرةِ الخرّوبِ، وكانتْ شمسُ نيسانَ المشرقةُ تاجًا على رأسِها.

تنهّدَ جدّي وقالَ: ذكرياتٌ، لولا الذّكرياتُ لرحلتْ جميلة إلى الأبدِ، يومَ ذَوَتْ وهيَ تلدُ عمّتَكَ لمياء، ولَحِقْتُ بها حزنًا عليها.

سألتُ جدّي: كيفَ احتملتَ رحيلَها؟

فأضاءَ وجهُهُ مثلَ قرصِ الشّمسِ وأجابَ: جدّتُكَ لمْ ترحلْ، جدّتُكَ هنا. وأشارَ بيدِهِ إلى قلبِهِ، تحتَ العباءةِ.

سألتُهُ: ماذا تفعلُ بالفرحِ عندَما يمرُّ عليكَ وجدّتي ليستْ معكَ؟

قالَ جدّي بثقةٍ: أعيشُهُ كأنّها تعيشُهُ معي. سيمرُّ على وفاةِ جدّتِكَ بعدَ أيّامٍ تسعٌ وعشرونَ سنةً، وفي هذهِ الأعوامِ مرَّ عليَّ مثلما مرَّ على غيري، أيّامُ شدّةٍ وأيّامُ رخاءٍ، عشتُها بحلوِها ومرِّها، لكنّني لمْ أنسَ فيها جدّتَكَ يومًا واحدًا.

تعلّمتُ منْ جدّي أنَّ عيشَنا للحاضرِ لا يعني أنْ نخونَ الماضي، وأنَّ فرحَنا لا يعني أنّنا فقدْنا حزنَنا على منْ فقدناهُمْ. تعلّمتُ منْ جدّي مراقبةَ الطّقسِ، ومخاطبةَ السّماءِ، ومراقبةَ نجومِها، لكنّني لمْ أفكّرْ مرّةً واحدةً قبلَ هذا اليومِ أنْ أتعلّمَ منهُ طريقتَهُ في الصّبرِ. كيفَ يتعاملُ مع ذكرياتِهِ؟ تنبّهتُ للحظةٍ... جدّي عملَ في مصنعِ الذّكرياتِ أيضًا إلى أنْ سقطتْ أسنانُهُ. كانَ عليَّ أنْ أعرفَ ذلكَ منذُ زمنٍ. لكنَّ الأوانَ... قلتُ في نفسي... لمْ يَفُتْ.

15

ذكريات أبي

هـلْ يعملُ أبي أيضًا في المصنعِ دونَ أنْ أنتبهَ؟ ذكرياتُ جدّي الّتي حدّثني عنْها فاجأتْني. كنتُ أظنُّ أنّي أعرفُ جدّي أكثرَ منْ أيِّ شخصٍ آخرَ. لكنّهُ حدّثَني، وكانَ كريم لا يكفُّ عنْ خرمشةِ وجهي، بما لمْ أسمعْهُ منْ قبلُ. احتفظتُ في رأسي، ولأوّلِ مرّةٍ، بصورةٍ واضحةٍ عنْ جدّتي جميلة. منَ الآنَ فصاعدًا لنْ أستطيعَ أنْ أجلسَ تحتَ شجرةِ الخرّوبِ دونَ أنْ تتدلّى جديلتاها نهرًا منْ عصيرِ الخرّوبِ على كتفيَّ...

وأبي؟ أينَ هوَ؟

دسستُ جسدي إلى جانبِ أبي وهوَ يشاهدُ التّلفازَ، كانَ يتابعُ نشرةَ الأخبارِ.

سألتُهُ: كمْ بيتًا بنيْتَ في القريةِ حتّى الآنَ؟

تفاجَأَ أبي بسؤالي مثلَما تفاجأَ بجلوسي إلى جانبِهِ. تنبّهتُ... فمنذُ وفاةِ أمّي لمْ نجلسْ أنا وأبي هكذا، جنبًا إلى جنبٍ، بهذا القربِ. تذكّرتُ... لقدْ حاولَ أبي مرارًا، لكنّني كنتُ أجدُ حجّةً في كلِّ مرّةٍ كيْ أظلَّ بعيدًا عنهُ. تحجّجتُ بالدّراسةِ... باللّعبِ مع أصدقائي... بمراقبةِ الطّقسِ. لقدْ أردتُ أنْ أعاقبَهُ؛ كيفَ نسيَ أمّي؟ كيفَ نسيَ ضحكَهُ معَها؟ كيفَ نسيَ أَكْلَها؟ كيفَ نسيَ تعبَها في أنْ تعدَّ لهُ دائمًا كلَّ ما يجعلُهُ مرتاحًا؟

حتّى إبريقُ الشّايِ الّذي كانتْ تصنعُهُ لهُ كلَّ مساءٍ لمْ يعدْ يتذكّرُهُ. كانتْ تدخلُ بهِ فوقَ الصّينيّةِ المزيّنةِ بريشِ الطّاووسِ، وعليْها كوبانِ، واحدٌ لهُ، وواحدٌ لها، وعندَما أسألُهما: وأنا؟ أليس لي كوبٌ؟ كانا يضحكانِ. كانتْ أمّي تردُّ: عندَما تصبحُ في الصّفِّ الثّامنِ سأسمحُ لكَ أنْ تشربَ الشّايَ في المساءِ. صرتُ في الصّفِّ التّاسعِ يا أمّي، وبعدَ انتهاءِ هذهِ الإجازةِ، سأصيرُ في الصّفِّ العاشرِ.

قلتُ لأبي: اشتقتُ لأمّي.

اغرورقتْ عيناهُ بالدّمعِ، وضمّني إلى صدرِهِ، ولأوّلِ مرّةٍ منذُ رحيلِها قبلَ ثلاثِ سنواتٍ، سمعتُ صوتَ بكائِهِ. عندَما رفعَ رأسَهُ، كانتْ عيناهُ محمرّتيْنِ، وجافّتيْنِ. مسحَ دموعَهُ قبلَ أنْ أراها.

سألتُهُ: هلْ نسيتَ أمّي؟

تحشرجَ صوتُهُ: كيفَ أعيشُ إنْ نسيتُها؟

كدتُ أصرخُ في وجهِهِ، لكنّني تذكّرتُ حديقةَ رافيا، تذكّرتُ المعيارَ، أخذتُ شهيقًا وزفيرًا، فهدأَ صوتي وقلتُ: لكنّكَ تزوّجتَ.

- خفتُ منَ الوحدةِ.

- لكنّني معكَ.

- خفتُ منَ اليومِ الّذي ستذهبُ فيهِ فأظلُّ وحدي.

أشفقتُ على أبي. أحسستُ بوحدتِهِ. لأوّلِ مرّةٍ منذُ سنواتٍ أتفرّسُ في ملامحِ وجهِهِ ويديْهِ المجرّحتيْنِ منْ رفعِ الطّوبِ وخلطِ الباطونِ وسبكِ الخشبِ والحديدِ. كَبُرَ أبي ولمْ أرهُ. كيفَ سمحتُ لنفسي بأنْ لا أسجّلَ ذلكَ في ذاكرتي؟ يا إلهي! تفاجأتُ! كادَ النّسيانُ أنْ يسرقَ صورةَ أبي منّي؛ وجهَهُ، ويديْهِ، ودموعَهُ.

حضنتُ أبي كما لمْ أفعلْ منْ قبلُ. قلتُ لهُ بصوتٍ قويٍّ، فيهِ قوّةُ صانعِ الذّكرياتِ وشجاعتِه: لنْ أتركَكَ أبدًا يا أبي، حتّى آخرِ يومٍ في حياتي. أنا وكريم، سنظلُّ معكَ.

كانتْ ذراعاهُ تشدّانني إليهِ... صرنا كأنّنا شمسٌ واحدةٌ في قدرٍ صغيرٍ، نحترقُ معًا، ونسحُّ مطرًا. عندَما رفعتُ رأسي ونظرتُ نحوَ البابِ، كانتْ خالتي رنا تقفُ هناكَ وعلى ذراعيْها كريم يضحكُ، وهيَ تمسحُ دموعَها... كأنّها كانتْ معنا، تصهرُها حرارةُ الذّكرياتِ.

16

عاطف ومحمود وصافي

فـكّرنا جيّدًا باللّاعبينَ الثلاثةِ الّذينَ سنختارُهُم. اقترحَ منصور عاطف ومحمود منْ شعبتِهِ. قالَ إنّهما ذكيّانِ وخفيفا الظّلِّ ولنْ نضطرَّ أنْ نشرحَ لهما كثيرًا كيفَ مددْنا سلّمًا منْ رأسِ الجبلِ حتّى عينِ الشّمسِ.

تململَ عدلي كأنَّ الاقتراحَ لم يعجبْهُ.

سألتُهُ: ما رأيكَ يا عدلي؟

أفصحَ عمّا في قلبِهِ: لقدْ سخرا منّي؟

ولامَ منصور قائلاً: كيفَ نسيتَ بسرعةٍ ما حصلَ في حصّةِ الفنِّ؟

تدخّلتْ رافيا الحنونةُ، طلبتْ منْ عدلي أنْ يكونَ صاحبَ قلبٍ كبيرٍ مثلَما هوَ دائمًا، وذكّرتْهُ ألّا ينسى أنّهُ هوَ الآخرُ لا يرحمُ النّاسَ منْ مقالبِهِ.

قالتْ لهُ بجدّيّةٍ تامّة: تصوّرْ لوْ أنّنا كنّا نأخذُ مقالبَكَ على محملِ الجدِّ! كنّا قطعْنا علاقتَنا بكَ منذُ زمنٍ طويلٍ.

قالَ عدلي، وهوَ يحاولُ أنْ يبدوَ في صورةِ المغلوبِ على أمرِهِ:

حسنًا. لكنْ لا تنسَوْا أنّنا مازلنا بحاجةٍ إلى شخصٍ ثالثٍ.

تنحنحتُ، وكنتُ قلقًا منْ تقبّلِهِمْ لاقتراحي، فبدوتُ كأنّي أدافعُ عنْ خيارٍ اخترتُهُ وانتهى الأمرُ: إنَّ صافي كلبٌ مرحٌ، وذكيٌّ، وقدْ وعدتُهُ أنْ أسندَ إليهِ مهمّةً معيّنةً في خدمةِ الشّمسِ. كنتُ فقط أنتظرُ الوقتَ المناسبَ لأستشيرَكُمْ.

ضحكَ ثلاثتهم وردّدوا بصوتٍ واحدٍ: صافي! الكلب!

احتددتُ: ما بِهِ الكلبُ؟ ألأنّهُ حيوانٌ؟ إنّكمْ لا تعرفونَ شيئًا عنِ الحيواناتِ. لا تعرفونَ أنّها تتنبّأُ بتقلّباتِ الطّبيعةِ والطّقسِ قبلَ الإنسانِ.

قالَ منصور محاولاً تخطّيَ الأمرِ بحكمتِهِ: حسنًا، حسنًا يا جماعة.

إنّها لعبةٌ. إنَّ الكلابَ تساعدُ الإنسانَ في أوقاتِ الجدِّ، فتحرسُهُ في اللّيلِ، وتساعدُهُ في كشفِ المجرمينَ مثل الكلابِ البوليسيّةِ. الأمرُ أهونُ في أوقاتِ اللّعبِ. لماذا إذًا لا نشركُ صافي معنا في لعبتِنا؟

علّقتْ رافيا بحبٍّ: لنجرّبْ. لنْ نخسرَ شيئًا. وصافي كلبٌ لطيفٌ.

قالَ عدلي ممازحًا: صافي حيوانانِ اثنانِ في واحدٍ، بقرةٌ وكلبٌ في آنٍ معًا، هذا يعني أنّنا سنصيرُ ثمانيةً.

أمسكتُ عدلي منْ شعرِهِ، ثمَّ بطحتُهُ على الأرضِ، وقلتُ لهُ: تعالَ وقابلْني، إذا نبتَ لكَ نابٌ بدلَ نابِكَ المكسورِ لنْ يكونَ اسمي "جابر".

17

هيّا نلعب

أرسلتُ رسالةً جماعيّةً إلى عدلي ومنصور ورافيا، بعدَ أنْ أضفتُ إلى مجموعةِ المستلمينَ عاطف ومحمود. كتبتُ في الرّسالةِ: سنلتقي عندَ شجرةِ الخرّوبِ يا شبابُ، السّاعةَ الخامسةَ. غدًا، هيّا نلعبُ!

جاءتْني ردودٌ مختلفةٌ منَ المرسلِ إليهِمْ:

كتبَ عاطف: طيّب، هلِ السّباحةُ مسموحةٌ؟

ثمَّ ألحقَها برسالةٍ ثانيةٍ مباشرةً: جابر، أحضرْ لي عباءةً منْ عباءاتِ جدِّكَ.

ثمَّ ألحقَها برسالةٍ ثالثة: السّاعة الخامسة! سنحترقُ تحتَ الشّمسِ يا شبابُ، حضّروا أنفسَكُمْ للشّيِّ. كَتَبَ منصور واضعًا الكلامَ بينَ أقواسٍ: "علّموا أولادَكُمُ السّباحةَ والرّمايةَ وركوبَ الخيلِ."

كتبتْ رافيا: سأحضرُ معي معجّناتِ جبنةٍ بالزّعترِ، وبرّادَ شايٍ، ليأتِ كلُّ واحدٍ منكُمْ بكوبِهِ الخاصِّ.

كتبَ عدلي: هلْ أرسلتَ رسالةً لصافي؟ لا أرى اسمَهُ مسجّلاً مع المستلمينَ. هلْ أُرسلُ لكَ رقمَهُ؟

الوحيدُ الّذي لمْ يعلّقْ كانَ محمود، وعندَما التقيْنا في اليومِ التّالي، قالَ لنا إنّهُ لمْ يستطعْ أنْ يردَّ، فقدْ ظلَّ يضحكُ على رسالةِ عدلي. ثمَّ تركَنا وراحَ يركضُ خلفَ صافي ويقولُ: انتظرْ، لأشرحَ لكَ دورَكَ.

لقدْ وزّعنا الأدوارَ بالقرعةِ حتّى لا ينزعجَ أحدٌ. وقدْ جاءتْ موزّعةً كالتّالي: منصور في دورِ "الحارس"، عدلي في دورِ "صانعِ الذّكريات"، رافيا في دورِ "الحكيم"، أنا في دورِ "المهرّج"، عاطف في دورِ "الكابوس"، صافي في دورِ "النّسيان". وأخيرًا محمود في دورِ "الممرّض".

بدأنا اللّعبةَ قبلَ كلِّ شيءٍ بصناعةِ الذّكرياتِ. فَرَدْتُ قوالبَ المعمولِ على الأرضِ.

كنتُ قدْ أخرجتُها منَ الصّندوقِ المخبّأ في خزانتي... نقلتُها منَ المطبخِ قبلَ يومٍ واحدٍ منَ انتقالِ خالتي رنا للعيشِ معنا، وخبّأتُها في كيسٍ من البلاستيك، وعندَما بدأتْ عمّتي لمياء استعداداتِها للسّفرِ أعطتْني صندوقًا خشبيًّا كانتْ تحتفظُ بمجلّاتِها فيهِ. وضعتُ فيهِ مجموعةً منَ الأشياءِ الخاصّةِ بي، ومنْها قوالبُ المعمولِ.

جَبَلْنا التّرابَ بالماءِ ووضعناهُ في القوالبِ، ولمْ ننسَ أنْ نضعَ في كلِّ قالبٍ شريطًا منَ القماشِ الملوّنِ حتّى يجفَّ القالبُ فوقَ الشّريطِ فيصبحَ جزءًا منهُ، وهكذا يسهلُ التّحكّمُ بالقالبِ بواسطةِ الشّريطِ. كانَ وصولُنا الساعةَ الخامسةَ ضروريًّا. في هذهِ السّاعةِ سنكونُ قدْ أعددْنا القوالبَ، وتركناها تجفُّ تحتَ الشّمسِ، فنصبحُ، نحنُ وذكرياتنا، جاهزينَ للّعبِ حوالي السّاعةِ السّادسةِ أوِ السّادسةِ والنّصفِ على أبعدِ تقديرٍ.

صنعنا قطعًا مختلفةً منَ الذّكرياتِ. اختارَ كلُّ واحدٍ منّا لذكراهُ قالبًا مناسبًا وشريطًا ملوّنًا شعرَ أنَّ لونهُ يشبهُ هذهِ الذكرى. جَبَلَ محمود ذكرى أوّلِ حقنةٍ حقنَهُ إيّاها الطّبيبُ عندَما أصيبَ بجدريِّ الماءِ، ووضعَها في القالبِ الأسطوانيِّ، واختارَ شريطًا لونُهُ أسودُ، ليعلّقَها بِهِ.

اختارَ عاطف الشّريطَ الأحمرَ، ووضعَهُ وسطَ قالبِ القلبِ الّذي يحملُ

ذكرياتِهِ عنْ أوّلِ خفقانٍ لقلبِهِ. فَرَدَ القالبَ في راحةِ يدِهِ وأطلقَ تنهيدةً تشبهُ تنهيدةَ جدّي وهوَ يحدّثُني عنْ جدّتي جميلة. اختارتْ رافيا قالبًا دائريَّ الشّكلِ، واختارتْ لهُ شريطًا ذهبيًّا، وجبلتْ ذكرى حصولِها على أوّلِ قرطٍ مصنوعٍ منَ الذّهبِ. كانَ ذلكَ في عيدِ ميلادِها قبلَ عامٍ، وأرتْنا القرطَ. قالت: انظروا، أليسَ جميلاً؟

فهززتُ رأسي. انتبهتُ إلى أنَّ رافيا كبُرَتْ، وأنَّ أُذنيْها اللّتيْنِ كانتا متورّمتيْنِ حولَ قرطٍ طبيٍّ صغيرٍ أيامَ الرّوضةِ قدْ صارتا بحجمِ أُذنيْ عمّتي لمياء.

قلتُ لها: القرطُ جميلٌ، وأُذناكِ كبيرتانِ.

لقدْ شعرتُ بأنّي بدأتُ أحضّرُ نفسي لدوري الجديدِ "المهرّج"، وكنتُ أنتظرُ بشوقٍ أنْ أتعرّفَ على الذّكرى الّتي سيصنعُها عدلي ومنصور. فكّرتُ: الذّكرياتُ تكشفُ الأسرارَ.

اختارَ منصور الشّريطَ الأخضرَ، واختارَ قالبَ الوردةِ، وقالَ: سأجبلُ ذكرى أشهى طبخةٍ أحبُّها "الملوخيّة". إنّها تذكّرُني بأبي. كانتْ آخرَ طبخةٍ أكلَها معنا في اليومِ الّذي اعتقلَهُ فيهِ جنودُ الاحتلالِ. الملوخيّةُ مثل الوردةِ تنبتُ في قلبي فتذكّرُني بهِ كلّما أكلتُها.

قالَ عدلي: أمّا أنا، فسأختارُ القالبَ الأسطوانيَّ، وسأعلّقُهُ بشريطٍ أصفرَ.

إنّهُ لونُ المرضِ، وسوفَ أخبّئُ في القالبِ ذكرى سقوطي عنْ شجرةِ الخرّوبِ، أوّلِ طيرانٍ وآخرِ طيرانٍ سأقومُ بهِ.

فتّشتُ في وجهِ عدلي عنْ ظلٍّ للمرحِ، لكنّهُ بدا على غيرِ العادةِ، يردّدُ كلامَهُ بجديّةٍ تامّةٍ، فعلّقتُ قائلاً: يبدو أنَّ دورَكَ كصانعٍ للذّكرياتِ بدأَ ينسيكَ منذُ الآنَ دورَكَ الحقيقيَّ في الحياةِ أيّها المهرّجُ. لكنِ اطمئنَّ، المهرّجُ في أمانٍ.

انتبهتُ حينَها إلى أنّي بادلتُ دوري مع عدلي. هوَ صارَ صانعَ الذّكرياتِ، وأنا صرتُ المهرّجَ بدلاً منهُ. رفعتُ يدي بقالبٍ مربّعِ الشّكلِ، يتدلّى منهُ شريطٌ أبيضُ، وقلتُ لأصدقائي: هاكُمُ الذّكرياتِ الّتي نحظى بها عندما يصيرُ لنا إخوةٌ صغارٌ، ذكرياتُ علبِ الفوطِ الّتي لا أكفُّ عنْ حملِها منَ السّوبرماركت إلى البيتِ، ومنْ تحتِ كريم إلى سلّةِ القمامةِ.

ضحكَ الجميعُ... ربّتَ عدلي على كتفي وهوَ يضحكُ وقالَ بصوتِ صانعِ الذّكرياتِ الشّجاعِ: الآنَ، لنْ أخشى على المهرّجِ وهوَ معكَ.

وما إنْ حلّتِ السّاعةُ السّادسةُ والرّبعُ حتّى كنّا قدْ صنعنا إحدى وعشرينَ ذكرى. حتّى صافي الّذي صنعنا ذكرياتِنا عنهُ واستشرناهُ بألوانِها وأشكالِها، كانَ يشاركُنا رأيَهُ بالنّباحِ فلمْ نفهمْ منهُ شيئًا.

كانتْ لهُ ثلاثُ ذكرياتٍ نجهلُها. علّقنا الذّكرياتِ كلَّها فتدلّتْ عنْ أغصانِ شجرةِ الخروبِ، فهزّتْها رياحُ تمّوزَ السّاخنةُ فوقَ قمّةِ جبلِ العاصورِ العاليةِ.

18

النّسيان يأكل الذّكريات

لـمْ تطلْ صورةُ الذّكرياتِ ورياحُ تمّوزَ السّاخنةُ تلعبُ بها، فقدْ طلبْنا منْ عدلي، صانعِ الذّكرياتِ، أنْ يذهبَ ويتمشّى بعيدًا ويصطحبَ معهُ صافي بينَما انشغلْنا نحنُ الخمسةُ في فكِّ الذّكرياتِ عنِ الشّجرةِ ثمَّ البحثِ عنْ أماكنَ لإخفائِها. دفنّا إحدى وعشرينَ ذكرى. حفرْنا في الأرضِ، وأَهَلْنا التّرابَ فوقَها، وحاولْنا قدرَ الإمكانِ أنْ نجعلَ الأمرَ يبدو صعبًا لا ينكشفُ بسهولةٍ لعدلي، فغطّيْنا التّرابَ الّذي عبثْتْ بهِ أيدينا

بترابٍ جافٍّ كي يبدوَ وكأنّهُ لمْ يتعرّضْ لقدمٍ أوْ ليدٍ منذُ زمنٍ، وخربشْنا بعودٍ يابسٍ على سطحِهِ. كانتْ مهمّةُ عدلي تقضي بأنْ يجمعَ خلالَ نصفِ ساعةٍ أكبرَ عددٍ ممكنٍ منَ الذّكرياتِ دونَ أنْ يمسكَ بهِ النّسيانُ الّذي يقومُ بدورِهِ صافي. كانتْ مهمّتُنا أنا ومنصور ورافيا ومحمود أنْ نشجّعَ عدلي، وأنْ نُبعدَ عنهُ صافي. وكانتْ مهمّةُ الكابوسِ الّتي يقومُ بها عاطف، أنْ يقفَ تحتَ أغصانِ شجرةِ الخرّوبِ فيحولَ دونَ تعليقِ عدلي للذّكرياتِ على أغصانِها بعدَ أنْ يجدَها. وأنْ يمنعَهُ منْ أنْ يضعَ تلكَ الذّكرياتِ على بابِ العبورِ، فتكونَ جوازَ سفرِهِ عبرَ طريقِ الأحلامِ إلى الشّمسِ.

أحضرَ عاطف معهُ قناعًا وضعَهُ على وجهِهِ، وارتدى عباءَةَ جدّي السّوداءَ. بدا شكلُهُ مخيفًا. وقفَ تحتَ شجرةِ الخرّوبِ يحدّقُ في ساعتِهِ ويحسبُ الوقتَ وهوَ يمضي. وبعيدًا عنهُ بخطواتٍ، جلسَ منصور، حارسُ دربِ التّبّانةِ، متّكئًا على جذعِ الشّجرةِ، يستعجلُ الوقتَ حتّى يسمحَ لصانعِ الذّكرياتِ أنْ يعلّقَ ذكرياتِهِ.

لقدْ كانتِ الجولةُ الّتي قامَ بها عدلي وصافي فوقَ الجبلِ كفيلةً بتقويةِ العلاقةِ بينهُما، فالتصقَ صافي بعدلي مثل ظلّهِ، وراحَ يلفُّ ويدورُ حولَهُ

دونَ أنْ يتوقّفَ عنِ النّباحِ سيّما عندَما يسمعُ جملةً منْ هنا وجملةً منْ هناكَ، يقولُها أحدُنا، ونحنُ نصفّقُ بأيدينا حتّى نحمّسَ عدلي، فكلّما اقتربَ عدلي منْ ذكرى مدفونةٍ صحنا ثلاثتنا، الحكيمُ والممرّضُ والمهرّجُ: قرّب... قرّب.

وكلّما ابتعدَ عدلي عنِ الهدفِ صحنا يائسينَ: بعّد... بعّد. كانَ صراخُنا يدفعُ صافي لأنْ يردَّ علينا بالنّباحِ، وبعدَ ذلكَ صارَ ينبحُ كلّما صرخنا، فاختلطَ نباحُهُ بصراخِنا، فضحكنا.

قلتُ: يبدو أنَّ النّسيانَ نسيَ مهمّتهُ فصارَ يشجّعُ جمعَ الذّكرياتِ معنا. كانَ عدلي يبحثُ عنِ الذّكرياتِ بمنتهى الهمّةِ والنّشاطِ كأنّهُ يبحثُ عنْ شيءٍ أضاعَهُ فعلاً. كانَ يقومُ بدورِهِ بشجاعةٍ وإصرارٍ وثقةٍ تليقُ بصانعِ ذكرياتٍ حقيقيٍّ. أخذَ يتنقّلُ حولَ الشّجرةِ فوقَ الجبلِ، ويبحثُ عنْ علاماتٍ تشيرُ إلى أماكنِ دفنِ الذّكرياتِ، وكلّما وجدَ واحدةً، يصيحُ في وجهِ صافي: لقدْ أنقذتُ هذهِ الذّكرى منْ بينِ أنيابكَ أيّها النّسيانُ.

فيردُّ عليهِ صافي بنباحِهِ المتواصلِ ثمَّ يضعُ عدلي الذّكرى الّتي وجدَها في كيسٍ منَ الخيشِ، يعلّقهُ في عنقِهِ بشريطٍ منَ القماشِ الأزرقِ.

صاحَ الكابوس: انتهتِ النّصفُ ساعةٍ، ثمَّ أكملَ بنبرةٍ تحدٍّ: تعالَ يا صانعَ الذّكرياتِ، أرني كيفَ ستمرُّ بذكرياتِك إلى عينِ الشّمسِ.

تقدّمَ عدلي، وأخذَ الكابوسُ يراوغُهُ بقناعِهِ المخيفِ محاولاً إخافتَهُ ومنعَهُ. أحطنا ثلاثتنا بصانعِ الذّكرياتِ لنحولَ بينَهُ وبينَ الكابوسِ.

ردّدتِ الحكيمةُ رافيا: للشّمسِ ثلاثُ نوافذَ، واحدةٌ منْها مفتوحةٌ كيْ يعبرَ منْها صانعُ الذّكرياتِ.

قالَ الممرّضُ: عينُ الشّمسِ مريضةٌ لا يشفيها سوى الذّكرياتِ. إنّها لرمدِ العينِ كالشّاي السّاخنِ، ولجمالِها كالكحلِ الأسودِ، ولرؤيتِها كالبصيرةِ النّافذةِ.

قلتُ: يا كابوس يا أبو سبع روس، على ذكرياتنا لن تدوس. ذكرياتنا ليست للأكل ولا للبيع، لا ببلاش ولا بفلوس.

ضحكَ الجميعُ حتّى خرجوا عنْ جدّيّتهِم. نبحَ صافي الّذي دافعَ عنْ صانعِ الذّكرياتِ أكثرَ منْ أيٍّ واحدٍ فينا، فقدْ أثارَهُ القناعُ الّذي وضعَهُ عاطف على وجهِهِ، فاشتبكَ معَهُ.

علّقَ عدلي على شجرةِ الخرّوبِ إحدى عشرةَ ذكرى، بينَما جمعَ في كيسِهِ خمسَ عشرةَ ذكرى.

لقدِ استطعْنا أنْ ننقذَ خمسَ عشرةَ ذكرى منْ ذكرياتِنا، إحدى عشرةَ

منها تتأرجحُ بروائحِها ومذاقاتِها وألوانِها أمامَنا. كانتْ مدلّاةً بقوّةٍ، مثل علاماتِ نصرٍ، تلوحُ بألوانٍ حمراءَ وذهبيّةٍ وزرقاءَ وسوداءَ... على شكلِ نجومٍ وأسطواناتٍ وورودٍ وقلوبٍ فوقَ قمّةِ العاصورِ. كانتْ تلكَ صورةَ الذّكرياتِ قبلَ أنْ نلحقَ برافيا الّتي اقترحتْ أنْ نجلسَ على الصّخرةِ المطلّةِ على القريةِ، نشربُ الشّايَ، ونأكلُ المعجّناتِ بعدَ التّعبِ الّذي طالَ منّا ما طالَ. لقدْ أكلْنا وضحكْنا، وكلُّ واحدٍ منّا أخذَ يسردُ بحماسةٍ عظيمةٍ انخراطَهُ في اللّعبةِ. سألَنا عدلي: هلْ سنكشفُ عنْ باقي الذّكرياتِ المدفونةِ؟

فكّرنا واتّفقنا على أنْ نتركَ الذّكرياتِ الّتي لا يجدُها صانعُ الذّكرياتِ في مكانِها، وقلْنا إنّها الذّكرياتُ الّتي أكلَها النّسيانُ، وفي كلِّ مرّةٍ نلعبُ فيها قدْ تزيدُ أو تنقصُ حسبَ مهارةِ صانعِ الذّكرياتِ.

بحثْنا عنْ صافي ونحنُ نتحدّثُ عنِ النّسيانِ لنشيرَ نحوَهُ، فلمْ نجدْهُ، وعندَما ذهبْنا لنطمئنَّ على ذكرياتِنا الّتي نجتْ، وجدْنا صافي قدْ شدَّها واحدةً واحدةً وأسقطَها فوقَ الارضِ.

قابلَنا صافي وهوَ ينبحُ بصورةِ المنتصرِ الّذي قامَ بدورِهِ على أكملِ وجهٍ، عندَما استغلَّ فرصةَ انشغالِنا؛ فأسقطَ ذكرياتِنا عنْ شجرةِ الخرّوبِ.

19

ورشة البناء

حـملتُ لوحَ الخشبِ، وصعدتُ بهِ الدَّرَجَ الخشنَ بانتباهٍ وحذرٍ.

طلبتُ منْ أبي أنْ يأخذَني معهُ إلى ورشةِ البناءِ. تذكّرتُ عندَما حدّثَنا الأستاذُ عنِ البطالةِ. قلتُ لأبي: لا أريدُ أنْ أكونَ عاطلاً عنِ العملِ.

قالَ أبي متعجّبًا: هلْ قصّرتُ في حقّكَ؟ خذْ... ومدَّ يدَهُ في جيبهِ وأخرجَ منها نقودًا.

قلتُ بحزمٍ: لا... لا يا أبي. لستُ بحاجةٍ للنّقودِ.

قالَ بتلعثم: لماذا تريدُ أنْ تتركَ المدرسةَ إذًا؟
قلتُ لهُ مستغربًا: منْ قالَ ذلكَ؟ لا أفكّرُ في ذلكَ أبدًا. أريدُ مساعدتَكَ، هذا أوّلًا، وثانيًا أينَ الخطأُ لو تعلّمتُ مهنةً إلى جانبِ دراستي؟
تدخّلَ جدّي: اعتبرْهُ عاملاً عندَكَ، وأعطِهِ أجرتَهُ. اجعلْ جابر يحسُّ بقيمةِ القرشِ يا بنيَّ.
وذكّرَهُ جدّي بنفسِهِ وهوَ في الصفِّ السّادسِ عندَما أصرَّ على أنْ يتركَ المدرسةَ، ويذهبَ ليعملَ في قطفِ الخضارِ مع المزارعينَ.
ثمَّ تابعَ حديثَهُ: على الأقلِّ، هوَ لنْ يتركَ المدرسةَ، كما أنّهُ سيعملُ مع أبيهِ. مَنْ أحرصُ عليه منكَ يا بنيَّ؟
فرحتُ... سيصيرُ معي لأوّلِ مرّةٍ نقودٌ منْ عرقِ جبيني. سكتُّ وتركتُ جدّي يتحدّثُ عوضًا عنّي. سرعانَ ما اقتنعَ أبي، فوجدتُ نفسي في اليومِ التّالي فوقَ السّطحِ على ارتفاعِ طبقتيْنِ، لا أراقبُ النّجومَ، ولا أعدُّ أقمارَ الكواكبِ كما كنتُ أفعلُ سابقًا، بلْ أنقلُ الأخشابَ، وأسحبُ بالبكرةِ دلاءَ الرّملِ منْ أسفلِ البناءِ إلى سطحِهِ.
في اليومِ الأوّلِ، عدتُ منهكًا. غسلتُ جسدي، وتناولتُ العشاءَ مع أبي. كانتْ خالتي رنا قدْ صنعتْ لنا صينيّةَ كفتةٍ بالطّحينيّةِ والبطاطا

المقليّةِ، فأتينا عليْها كلّها مثل رجليْنِ كادحيْنِ. وما إنْ وضعتُ رأسي على الوسادةِ حتّى غرقتُ في النّوم، ولمْ أصحُ إلّا في اليومِ التّالي على صوتِ أبي يوقظُني: هيّا يا بنّاءُ، العملُ بانتظارِنا.

أحسستُ لأوّلِ مرّةٍ بتعبِ أبي، بالجهدِ الّذي كانَ يبذلُهُ على مدى سنواتٍ حتّى صارَ مشهورًا في القريةِ والمنطقةِ كلّها؛ فيأتي النّاسُ للبحثِ عنهُ، يسألونَ عنهُ بالاسمِ "البنّاء أبو جابر".

عدتُ في النّهارِ التّالي، فوجدتُ أكثرَ منْ رسالةٍ على هاتفي:

أرسلَ منصور رسالةً سألَ فيها عنْ سببِ غيابي. رافيا أرسلتْ تقولُ إنّها ستغيبُ أسبوعيْنِ في المدينةِ لزيارةِ بيتِ جدِّها لأمِّها. كتبتْ رافيا في رسالتِها: في رامَ الله لا توجدُ شجرةُ خرّوبٍ، ولا أعرفُ كيفَ سألعبُ مع أولادِ وبناتِ خالي وخالاتي لعبةَ الذّكرياتِ. كما أنّهُ، وليكنْ في علمِكَ، لا أظنُّ أنَّ هناكَ كلبًا مثلَ صافي في أيِّ مكانٍ في العالمِ. وذيّلتْ رسالتَها بوجهٍ مبتسمٍ.

الرسالةُ ما قبلَ الأخيرةِ كانتْ منْ عدلي، كتبَ فيها: لا تستغربْ إنْ سمعتَ منْ أحدٍ أنّني في المستشفى، فقدْ ذهبتُ لعملِ فحوصاتٍ.

أبلغِ "النّسيانَ" تحيّاتي. ووضعَ توقيعَهُ: "صانعُ الذّكرياتِ". آخرُ رسالةٍ كانتْ منْ عاطف: منذُ ذلكَ اليومِ وأنا أرى الكوابيسَ يا جابر. دعنا نلتقي لنوزّعَ الأدوارَ مجدّدًا، أريدُ أَنْ تسندوا لي أيَّ مهمّةٍ أُخرى، حتّى لو كانتْ مهمّةَ الكلبِ صافي، المهمُّ لا أريدُ أنْ أظلَّ كابوسًا.

أضحكتني رسالةُ عاطف، وأشعرتني رسالةُ رافيا بغيابِها، رغمَ أنّنا لا نلتقي دائمًا إلّا أنَّ غيابَها عنِ القريةِ جعلني أفتقدُها. أمّا الرسالةُ الّتي أقلقتني فقدْ كانتْ رسالةَ عدلي. كتبتُ لمنصور: أنا أذهبُ مع أبي إلى ورشةِ البناءِ يوميًّا. ماذا يحصلُ مع عدلي؟ اكتبْ لي إذا عرفتَ شيئًا. ووقّعتُ: المهرّجُ الّذي صارَ بنّاءً.

20

رمضان

حـاولَ أبي جاهدًا أنْ يمنعني منَ الذّهابِ معهُ إلى الورشةِ في شهرِ رمضانَ. أخبرني أنَّ العمّالَ المعتادينَ على العملِ يأخذونَ عُطلاً في رمضانَ. وزادَ على كلامِهِ: ستموتُ منَ العطشِ والجوعِ.

قلتُ لهُ: دعني أجرّبُ.

وبالفعلِ ذهبتُ مع أبي، وجرّبتُ. كانتِ المرّةَ الأولى الّتي أشعرُ فيها بمعنى الجوعِ والعطشِ في رمضانَ. أقضي شهرَ رمضانَ كلَّ عامٍ في النّومِ

ومشاهدةِ التّلفازِ. حتّى إنّني كنتُ أتكاسلُ عنِ الدّراسةِ.

هذا العام، كلُّ شيءٍ بدا مختلفًا. شعرتُ بأنَّ الحياةَ بدأتْ تفتحُ لي أبوابَها، وتكشفُ لي عن وجهِها الحقيقيِّ. صارَ لي أصدقاءُ جددٌ منَ النّاسِ العاديّينَ، عمّالٌ يتعبونَ، أتحدّثُ معهمْ عنِ الخشبِ والباطونِ والأعمدةِ الّتي تحملُ البيوتَ. حملنا الرّملَ، وعرقنا، وعطشنا، وجُعنا معًا، ومعًا أيضًا حلمنا أنْ نرجعَ إلى بيوتِنا مبكّرينَ كي نرتاحَ. صارَ للبيتِ طعمٌ آخرُ، حتّى كريم الصّغيرُ، صرتُ أشتاقُ إليهِ.

صرتُ أحبُّ أنْ أعودَ إلى البيتِ، فيلاقيني صافي، يعضُّ بنطالي. أقفُ على البابِ، وأخلعُ حذاءَ العملِ الباليَ، وأنفضُ ملابسي منَ الرّملِ، ثمَّ ما إنْ أرى كريم حتّى يركضَ نحوي، فتناديهِ خالتي رنا: دعْ أخاكَ يرتاحُ يا كوكي.

لكنّي أحضنُ كوكي، وأمصُّ خديْهِ، وأعضُّ أنفَهُ، وألفُّ وأدورُ بهِ كما يحبُّ، حتّى يغرقَ في الضّحكِ، وحولَنا يلفُّ صافي ويدورُ معبّرًا عنْ غيرتِهِ بنباحٍ لا ينقطعُ فأبدأُ بمراضاتِهِ. أضعُ لهُ في صحنِهِ بعضًا منْ طعامي، وأمسحُ على رأسِهِ فيهدأُ، لكنّهُ لا يكفُّ عنِ النّظرِ نحوي كلّما لاطفتُ كريم.

جاءتْ عمّتي لمياء لزيارتِنا، فجلسنا حولَ مائدةِ رمضانَ. إنّها أوّلُ مرّةٍ نكونُ عائلةً كبيرةً بهذا العددِ، عائلةً تدبُّ فيها الحياةُ بدفءٍ... حركةُ كريم، ونباحُ صافي، وصوتُ زوجِ عمّتي برائحةِ الأدويةِ، وكحّةُ جدّي بكبرِهِ، وصوتُ أبي بغبارِ البناءِ، وروائحُ طبيخِ عمّتي لمياء وخالتي رنا. لقدْ تعلّمتْ عمّتي لمياء أصنافًا جديدةً منَ الطّعامِ في ألمانيا، فظهرتِ الطّاولةُ مزيّنةً بأطعمةٍ مختلفةٍ. تذكّرتُ أمّي؛ فقرأتُ الفاتحةَ على روحِها، وطمأنتُها: أنا بخيرٍ، فرأيتُ ضحكتَها مرسومةً على وجهِ صحنِ العدسِ المزيّنِ بالجزرِ والكوسا والبصلِ والثّومِ. دعوتُ لعدلي: يا ربّ، احفظْ عدلي بخيرٍ، ولتكنْ فحوصاتُهُ سليمةً. اشتقتُ لرافيا... لقدْ طالتْ غيبتُها. قالتْ ستغيبُ أسبوعيْنِ، هلْ علّمتْ أولادَ أقاربِها كيفَ يلعبونَ لعبةَ الذّكرياتِ، أمْ قرّرتْ أنْ تلعبَها معنا نحنُ فقطْ، فنصيرَ إحدى ذكرياتِها؟ وحدَهُ منصور زارني في ورشةِ البناءِ، بدا مستعجلاً، طمأَنَني عنْ عدلي، قالَ إنّهُ مازالَ في المستشفى، لكنّهُ لا يعلمُ ممّا يشكو. فلمْ يخبرْهُ أحدٌ بشيءٍ، ولا عدلي نفسهُ عندَما اتّصلَ بهِ.

قلتُ لأبي: سأذهبُ لأزورَ عدلي.

ردَّ أبي مستغربًا: ما الّذي ذكّركَ بهِ أثناءَ الفطورِ؟

قلتُ وأنا أحرّكُ الملعقةَ في صحنِ العدسِ بحركةٍ لا إراديّةٍ: إنّهُ مريضٌ... في المستشفى.

بدتْ على أبي وعلى الجميعِ علاماتُ التّعاطفِ، فأخذوا يدعونَ لهُ.

قالَ أبي: حسنًا، بعدَ أيّام سنأخذُ عطلةً طويلةً. فلَكَ أنْ تختارَ متى تزورُهُ، وإذا كنتَ تفضّلُ أنْ أذهبَ معكَ.

هززتُ رأسي موافقًا، وقرّرتُ أنْ أستشيرَ منصور، ورافيا. ربّما نفاجئُ عدلي بزيارتِنا نحنُ الثّلاثة.

21

أسنان كوكي

مــرَّ شهرُ رمضانَ دونَ أنْ نجتمعَ تحتَ شجرةِ الخرّوبِ لمرّةٍ واحدةٍ. بقيَتْ بعضُ ذكرياتِنا مدفونةً هناكَ، تحتَها، في الأرضِ. لو أنَّ الفصلَ شتاءٌ، لتوقّعنا أنْ تمطرَ السّماءُ عليها، فنعودَ وقدْ وُلِدَتْ منَ الأرضِ ذكرياتُنا، ملوخيّةً وحُقَنًا، وقصصَ حبٍّ، وفوطًا، وأقراطًا ذهبيّةً، لكنّها شمسُ آب اللّهّابِ. اشتعلتِ الشّمسُ؛ لأنّها لمْ تجدْ واحدًا منْ خَدَمِها متفرّغًا للعنايةِ بها. رافيا في رام الله عندَ أقاربِها، وعدلي في المستشفى،

ومنصور يسحبُ نفسَهُ متهالكًا، يتنقّلُ بينَ النّومِ فوقَ السّريرِ والصّوفا أمامَ التّلفازِ، وبينَ البيتِ والسّوبرماركت، وبينَ بيتٍ وآخرَ ينقلُ صحونَ رمضانَ، وعاطف يشكو من كوابيسِهِ، ومحمود مختفٍ، وصافي في البيتِ طوالَ الوقتِ، وأحيانًا يلحقني إلى ورشةِ البناءِ وهوَ ينبحُ، يريدُ منّي أنْ أتركَ العملَ وألعبَ معهُ.

وأنا؟ كمْ مرّةٍ حاولتُ أنْ أبقى مستيقظًا مدّةَ ساعةٍ أشحذُ فيها تفكيري بالذّكرياتِ حتّى إذا نمتُ انتصرتُ على الكابوسِ؛ فعبرتُ منْ بوّابةِ الأحلامِ ونقرتُ بابَ الشّمسِ ليفتحَهُ لي حرّاسُها بلا فائدةٍ. أضعُ كلَّ يومِ رأسي على الوسادةِ فأغرقُ في النّومِ. لقدِ انشغلتُ بالحياةِ عنِ الذّكرياتِ. حقًّا فعلتُ، ولمْ يعدْ هذا الأمرُ يزعجُني؛ فصورةُ أمّي غزالة معي أينما ذهبتُ.

دخلتُ المطبخَ وفي يدي كيسٌ كبيرٌ. قلتُ لخالتي رنا: هذهِ قوالبُ المعمولِ الّتي كانتْ تستخدمُها أمّي.

نظرتْ عمّتي لمياء وخالتي رنا نحوي، وصمتتا. أخذتْ خالتي منّي الكيسَ وفتحتْهُ، وطلبتْ منّي أنْ أجلسَ وأساعدَهُما. طلبتْ منّي أنْ أقطعَ قطعًا صغيرةً منَ العجينةِ، وأضعَ فيها حبّةَ لوزٍ وأنْ أناولَها

لعمّتي لمياء، وهكذا فعلتُ، فشكّلنا ثلاثتنا خطَّ إنتاجٍ للمعمولِ. كأنّنا عمّالٌ في مصنعٍ ما.

أنا أقطعُ العجينةَ وأحشوها باللّوزِ ثمَّ أعطيها لعمّتي لمياء، فتضعُها داخلَ القالبِ وتضربُها فوقَ قطعةٍ منَ القماشِ. ثمَّ تَصُفُّ خالتي رنا المعمولَ فوقَ صينيّةٍ كبيرةٍ، وتدخلُهُ الفرنَ وتراقبُهُ والنّارُ تشويهِ، ثمَّ تخرجُهُ وتفردُهُ على قطعةٍ جافّةٍ أُخرى منَ القماشِ فتفوحُ منهُ رائحةٌ شهيّةٌ، معها أتأكّدُ أنَّ العيدَ في طريقِهِ إلينا كما كانَ في السّنواتِ الماضيةِ.

لمْ أخبرْ خالتي رنا وعمّتي لمياء بأنّي أعملُ منذُ سنواتٍ في مصنعِ الذّكرياتِ، وأنَّ صناعةَ المعمولِ تبدو لي عمليّةً في غايةِ السّهولةِ. لقدْ تعاملتا معي على أنّي عاملٌ مبتدئٌ، فلمْ تكفّا عنْ تذكيري بالخطواتِ، وإعطائي النّصائحَ بينَ وقتٍ وآخرَ. احتملتُ نصائحَهُما مثلَ عاملٍ مبتدئٍ. عندَما استيقظَ كريم، حاولتا إسنادَ مهمّةَ مداعبتِهِ لي، بعيدًا عنهُما، ريثَما تنهيانِ خبزَ المعمولِ، لكنّي حملتُ كريم، وقلتُ على سمعِهِما: لا بأسَ، تعالَ يا كوكي، سأعلّمكَ منذُ الآنَ كيفَ تُصنعُ الذّكرياتُ.

استغربتا ما قلتُ، كذّبتا أذنيْهِما؛ فتجاهلتا كلامي، وسمحتا لكوكي أنْ يحملَ عجينةً صغيرةً كيْ يلعبَ بها، لكنّني ظللتُ أحاولُ أنْ أعلّمَهُ،

ولوْ فكرةً واحدةً على الأقلِّ. قلتُ لهُ: الأمرُ سيبدو في البدايةِ صعبًا، ثمَّ سيصيرُ سهلاً. سنفردُ العجينةَ هكذا. سنضعُ حبّةَ اللّوزِ، أجلْ هكذا. وأخذتُ قالبًا على شكلِ نجمةٍ، ووضعتُ العجينةَ فيهِ، وحملنا، بيدي ويدِ كوكي، النّجمةَ. قلتُ لكوكي ونحنُ نرفعُ القالبَ: انظرْ، ضربْناها، صارَ لديْنا نجمةٌ. هيييي.

ضحكَ كوكي، لكنَّهُ اختارَ أنْ يلعبَ بالقالبِ. يضربُهُ بالأرضِ ويضحكُ. يضربهُ ويضحكُ. ونحنُ نجاريهِ ونلاطفُهُ. كنتُ أنظرُ نحوَ كريم وأبتسمُ. لقدْ كبرَ أخي، وظهرَ لهُ سنّانِ لبنيّانِ. سألتُ خالتي رنا: متى سنصنعُ لكوكي قمحًا مسلوقًا بالبصلِ وزيتِ الزّيتونِ احتفالاً بأسنانهِ؟

قالتْ عمّتي لمياء بحماسٍ: نعمْ... نعمْ، قبلَ أنْ نسافرَ سنصنعُ طنجرةً كبيرةً ونوزّعُ على الجيرانِ. وراحتْ تتذكّرُ ما فعلتْهُ هيَ وأمّي عندَما نبتتْ أسناني ثمَّ أردفتْ: سنذكّرُ كوكي بعدَ سنواتٍ بهذا اليومِ. الأيّامُ تمضي بسرعةٍ. لقدْ كبرتَ يا جابر.

فلمحتُ الأيّامَ تمضي في عينيْها مثلَ خرافٍ تسرحُ على رأسِ الجبلِ.

22

الهدايا

وصلتْني في العيدِ رسالةٌ منْ رافيا، قالتْ فيها: اشتقتُ إليكَ. لنْ أعودَ إلى القريةِ قريبًا، لأنّي التحقتُ بدورةٍ للّغةِ الإنجليزيّةِ. ما رأيكَ أنْ نزورَ عدلي يومَ الاثنينِ؟ أظنُّ أنَّ إقامتَهُ في المستشفى ستطولُ. كلَّ عامٍ وأنتَ بخيرٍ.

على إثرِ هذهِ الرّسالةِ اتّصلتُ بمنصور ورافيا واتّفقنا على تفاصيلِ الزّيارةِ.

ركبنا صباحَ الاثنين أنا ومنصور الباصَ المتّجهَ نحوَ رام الله. قرّرنا أنْ نذهبَ إلى المدينةِ باكرًا، فنتمشّى فيها قليلاً، ثمَّ نلتقي برافيا ونشتري ثلاثتنا هديّةً لعدلي قبلَ أنْ نذهبَ لزيارتِهِ.

كانتْ لديَّ النّقودُ الّتي حصلتُ عليها منْ عملي ومنْ عيديّةِ جدّي وعمّتي لمياء وأبي وخالتي رنا، وكانتْ مع منصور عيديّتُهُ إلّا أنّني قرّرتُ أنْ أدعوَ منصور على حسابي.

حاولَ منصور أنْ يناقشَني، لكنّي صمّمتُ قائلاً: لقدْ عملتُ ومعي نقودٌ. وأنتَ؟ مازالَ هناكَ وقتٌ حتّى نهايةِ العطلةِ الصيفيّةِ. تعالَ معنا إلى ورشةِ البناءِ، سأحدّثُ أبي.

- وستكونُ تكاليفُ طلعتِنا المقبلةِ على حسابي إذًا.

- اتّفقنا.

وضربْنا كفًّا بكفٍّ.

تجوّلنا مدّةَ ساعتينِ في المدينةِ. أكلنا شاورما، وبوظةً، ولعبنا لعبةَ البولينغ... ضربنا القطعَ الخشبيّةَ بالكرةِ.

علّقَ منصور: إنّهُ النّسيانُ، يقتلُ الذّكرياتِ.

أجبتُ: بلِ الكابوسُ يحاربُ صانعَ الذّكرياتِ.

ضحكنا وتمنّيْنا لوْ أنَّ عدلي معنا.

ظهرتْ رافيا صغيرةً عندَما التقيناها بالقربِ منَ "الأُسودِ"* وسطَ رامَ اللهِ. رأيتُها فشعرتُ أنّها قدْ جاءتْ للتوِّ منْ تحتِ شجرةِ الخرّوبِ.

انحدَرَتْ منْ فوقِ الجبلِ مثل كرةٍ صغيرةٍ. كلّما اقتربتْ كبُرتْ وظهرتْ تفاصيلُها. إنّها رافيا الحنونةُ، كمِ اشتقتُ إليها!

وقفنا بالقربِ منَ "الأُسود" ننتظرُ منصور ريثما يشتري شيئًا منَ الدّكانِ القريبِ ويعودُ، ناولتُها هديّتَها قائلاً: هذهِ لكِ.

تناولتْ منْ يدي علبةً صغيرةً وقالتْ بفرحٍ: قرطٌ على شكلِ نجمةٍ! ما أحلاهُ!

رددتُ بخجلٍ: كيْ تتذكّريني كلّما نظرتِ إلى السّماءِ ورأيتِ النّجومَ.

احمرَّ وجهُ رافيا: إنّني أتذكّركَ كلّما رأيتُ النّجومَ.

وأردفتْ: وأنا دائمًا أرى النّجومَ.

عادَ منصور فأعطيتُهُ هديّتَهُ، وكانتْ محفظةً لهاتفهِ عليها رأسُ بومةٍ، وعلبةَ ألوانٍ ودفترًا للرّسمِ. فمنذُ حادثةِ حصّةِ الفنِّ، أخبرني منصور أنّهُ أحسَّ بأنَّ الرّسمَ موهبتُهُ الحقيقيّةُ الّتي لمْ ينتبهْ إليها هوَ نفسُهُ قبلَ ذلكَ اليوم. حضنَني منصور متأثّرًا، وشبكتْ رافيا يدَها بيدي كلّما حاولنا قطعَ الشّارعِ أوْ دخلنا في زحامِ العيدِ.

*الأسود: خمسة تماثيل من الأسود تنتصب في وسط دوّار المنارة في مدينة رام الله

ذهبْنا لشراءِ هديّةٍ لعدلي قبلَ أنْ نمضيَ إلى المستشفى.
وفي الطّريقِ، تحدّثنا عمّا فعلَهُ كلٌّ واحدٍ منّا في الشّهريْنِ الماضييْنِ.
كنّا قدْ فكّرنا مليًّا بالهديّةِ الّتي قدْ تجعلُ عدلي يضحكُ رغمًا عنهُ
ووجدْناها. هديّةٌ لا يمكنُ أنْ تخطرَ ببالِ المهرّجِ نفسِهِ.

23
الوعد

بـدا عدلي منكمشًا تحتَ غطاءٍ أبيضَ. بينَهُ وبينَ السّريرِ الّذي يقعُ إلى جانبِهِ ستارةٌ تضمنُ لكلِّ مريضٍ في سريرِهِ ألّا يرى الآخرَ، لكنّها لا تمنعُهُما منْ أنْ يسمعا أنينَ بعضهما.

كانَ المريضُ الّذي يرقدُ بالقربِ منْ عدلي في مثلِ عمرِنا أوْ أصغرَ منّا بعامٍ. كانَ نائمًا فلمْ نستطعْ أنْ نسألَهُ عندَما تناقشنا بشأنِ عمرِهِ.

حاولَ عدلي أنْ يشعرَنا بأنَّ الأمورَ بخيرٍ فقالَ ممازحًا: هلْ أوقظُهُ لأسألَهُ

في أيِّ صفٍّ هوَ؟

وحاولَ بحركةٍ مسرحيّةٍ أنْ يزيحَ السّتارةَ بيدِه.

فقلنا بصوتٍ واحدٍ منخفضٍ أقربَ إلى الهمسِ: اتركْهُ يا مجنونُ.

حملتُ كرتونةً مزيّنةً بورقٍ أحمرَ ورفعتُها عاليًا بمنتهى الخفّةِ، وسألنا ثلاثتنا عدلي وكنّا مازلنا نحاولُ وشوشتَهُ: احزرْ. ماذا يوجدُ هنا؟

ردَّ متحديًّا: طيّب... لوْ حزرتُ، ما المقابلُ؟

- الّذي تطلبُهُ وتتمنّاه.

فكّرَ وهوَ يزمُّ شفتيْهِ: امم... حسنًا. تُخرجون كلَّ الذّكرياتِ الّتي مازالتْ مدفونةً في الجبلِ، وتعلّقونَها على أغصانِ شجرةِ الخرّوبِ.

فكّرنا: لكنْ... ذلكَ ضدّ مبدأِ اللّعبةِ.

انكمشَ وتوارى وجهُهُ الممازحُ خلفَ المرضِ و قالَ بحزنٍ: هذا طلبي.

وأكملَ: وربّما يكونُ الأخيرَ.

ردّتْ رافيا الحنونةُ بحزنٍ حتّى دمعتْ عيناها: لماذا تقولُ هذا الكلامَ يا عدلي؟

وحتّى أغيّرَ الجوَّ السّائدَ قلتُ بسرعةٍ: لكنّكَ لمْ تحزرْ بعدُ.

أخذَ العلبةَ منْ يدي بيديْهِ المتعبتيْنِ، وقرّبها منْ إحدى أُذنيْهِ ثمَّ منَ الأُخرى وهزّها. فسمعْنا كلُّنا حتّى الولد النّائم بجانبِ عدلي صوتَهُ...

كانَ الصوتُ صوتَ الجروِ الّذي لمْ نستطعْ بعدَها إسكاتَهُ.

ضحكَ عدلي، حتّى بانَ نابُهُ المكسورُ وقالَ: ما هذا؟ جروٌ؟

قلتُ: ستحبُّهُ. أقسمُ لكَ.

وطلبَ منّا أنْ نخرجَهُ ليراهُ فأخرجناهُ.

كانَ جروًا بلونِ العسلِ، بأذنيْنِ كبيرتيْنِ، وأنفٍ أسودَ صغيرٍ. كانَ يبكي مثلَ طفلٍ رضيعٍ. قرّبناهُ لعدلي فحملَهُ بينَ ذراعيْهِ فاستكانَ الجروُ، وأغمضَ عينيْهِ وأخذَ يمصُّ ياقةَ قميصِهِ.

قالتْ رافيا بحبٍّ: ما أحلاهُ! يعتقدُ أنّكَ أمُّهُ.

ضحكنا...

سألنا عدلي بفرحٍ: ماذا نسمّيهِ؟

ردَّ منصور: إنّهُ جروُكَ. سمِّهِ مثلما تريدُ.

تحسّسَهُ عدلي وقالَ: سأسمّيهِ "عسل" لأنّهُ بلونِ العسلِ.

ثمّ حدّقَ فينا مليًّا وقالَ بجديّةٍ: ستعودونَ وستخرجونَ الذّكرياتِ المدفونةَ. عدوني بذلكَ.

فوعدناهُ...

24

الذّكرى الأخيرة

انتشرْنا ثلاثتنا، أنا ومنصور ورافيا، تحتَ شجرةِ الخرّوبِ، ونبشنا الأرضَ. لوْ رآنا أحدٌ لشَكَّ في صحّةِ عقولِنا. كنّا ننبشُ الأرضَ كأنّنا نبحثُ عنْ كنزٍ، نبشنا بعيدانٍ صغيرةٍ وبمفكّاتٍ ثمَّ بمعاولَ. مضى قرابةُ الشّهرينِ على دفنِ الذّكرياتِ هنا. قفزتْ عصافيرُ على الأرضِ، ومشتْ دوابٌّ، وجلسَ ناسٌ عابرونَ، وشوى مستجمّونَ اللّحمَ، وجلسَ باحثونَ عنِ المناظرِ البعيدةِ لأجلِ صورٍ جميلةٍ يلتقطونَها بكاميراتِهِمْ منْ أعلى

الجبلِ. كانَ علينا أنْ نجدَ ستَّ ذكرياتٍ حتّى نُقسمَ صادقينَ عندما نتّصلُ بعدلي فيسألُنا: هلْ حرّرتُمُ الذّكرياتِ؟

فنجيبُهُ: نعمْ، واللهِ حرّرناها.

صانعُ الذّكرياتِ صادقٌ لا يكذبُ. حفرنا في كلِّ مكانٍ. وجدْنا أربعَ ذكرياتٍ. نبشْنا ولمْ نفلحْ، في العثورِ على الذّكرييْن الأخيرتينِ. غابتِ الشّمسُ؛ فقرّرْنا المجيئَ في المساءِ التّالي.

في اليومِ التّالي، وجدْنا واحدةً، وفي اليومِ الّذي يليهِ عدْنا لنجدَ الأخيرةَ. لقدْ بدونا حقًّا كمنْ يعيشُ الحاضرَ ويقاومُ النّسيانَ ليحميَ المستقبلَ. كنّا نفكّرُ أنّنا نريدُ أنْ نقولَ بملءِ أفواهِنا عندَما نزورُ عدلي أوْ نتّصلُ بهِ: نعمْ، لقدْ وجدناها كلَّها. لمْ يأكلِ النّسيانُ ولا حتّى ذكرى واحدةً. كلُّ ما كنّا نطمحُ إليهِ هوَ ضحكةُ عدلي.

قالتْ رافيا: بهدوءٍ. لنتحركْ فوقَ الأرضِ كأنّنا نمشي في حديقةٍ مزروعةٍ بالنّرجسِ والزّنبقِ، لنمشِ على رؤوسِ أصابعِنا كيْ لا نجرحَ الذّكرياتِ. ربّما تسمعُنا الذّكرى الأخيرةُ فتخافُ منْ أصواتِنا... ربّما هيَ طفلةٌ صغيرةٌ منزويةٌ في مكانٍ ما؛ لذلكَ لنخفضْ أصواتَنا، ولنغنِّ بصوتٍ

جميلٍ حنونٍ.
قلتُ: لنغنِّ. كوكا بالي تالالا، أيّتها الذّكرياتُ البعيدةُ المدفونةُ في أعماقِ الأرضِ، إنّنا هنا لنحميَكِ.
غنّى منصور: كوكا بالي تالالا، يا ماردَنا المضيءَ، ساعدْنا في استعادةِ الذّكرى المختبئةِ في بطنِ الأرضِ. إنّها ذكرى خائفةٌ، لكنّنا الفِراشُ لنومِها، والماءُ لعطشِها، والطّعامُ لجوعِها، والهواءُ لرئتيْها فطمئِنها.
غنّتْ رافيا وهيَ تتحسّسُ الأرضَ بيديْها الحنونتيْنِ، ومشتْ كأنّها تطيرُ: كوكا بالي تالالا. تعاليْ أيّتها الذّكرى الوحيدةُ، إنّني أمُّكِ. القلبُ الّذي يحملُ النّبضةَ الصّادقةَ، والعينُ الّتي تخفي النّظرةَ السّليمةَ، والجسمُ الّذي يضمُّ الرّوحَ النّقيّةَ.

نبتَتْ... رأيناها بأمِّ أعينِنا... وردةٌ منْ بذرةٍ أمسكتْها رافيا وحملتْها في باطنِ يدِها... نبتتْ على شكلِ قلبٍ. خرجَ منها ساقٌ وذهبَ إلى الأعلى. كدْنا نكذّبُ أعينَنا، لكنّهُ ظلَّ يمتدُّ، ومن جانبيْهِ تدلّتْ أغصانٌ بقلوبٍ صغيرةٍ كثيرةٍ. كلّما امتدَّ السّاقُ إلى أعلى، زادَ عددُ الأغصانِ وزادَ عددُ القلوبِ. ثقلتِ الوردةُ على يدِ رافيا، فأنزلتْ بذرتَها مكانَها، ودسّتْها في

الأرضِ. وقرفصْنا، ثلاثتنا، قربَ ساقِها الّذي كَبُرَ حتّى صارَ أكبرَ منْ جذعِ شجرةِ الخرّوبِ، وظلَّ يعلو ويعلو وهوَ يمضي باتّجاهِ شمسِ أيلول.

سألَنا عدلي ونحنُ نناولُهُ الذّكرياتِ الخمسَ الّتي أخرجناها منْ بطنِ الأرضِ: أيُّ ذكرى كانتْ تلكَ الذّكرى؟

فقلْنا لهُ بصوتٍ واحدٍ: الذّكرى الّتي خبّأها عاطف.

ابتسمَ عدلي وقالَ: أذكرُها جيّدًا. إنّها ذكرى الحبِّ. قالبُ معمولٍ لونُهُ أحمرُ.

حرّكنا رؤوسَنا بالإيجابِ، وهززناها بحركةٍ نحوَ اليمينِ كأنّنا سألْنا عنِ الشّخصِ المستلقي في السّريرِ بجانبِهِ.

قلتُ: ماذا بخصوصِهِ؟ كانَ نائمًا مثلَما تركناهُ المرّةَ الفائتةَ.

ردَّ عدلي بصوتٍ مرتفعٍ عنْ قصدٍ: إنّهُ في مثلِ عمرِنا.

وأكملَ: اسمُهُ حمزة.

فجاءَنا صوتٌ قويٌّ أجشُّ منْ خلفِ السّتارةِ: عاملٌ جديدٌ في مصنعِ الذّكرياتِ.

حدّقْنا في وجوهِ بعضٍ ثمَّ انخرطْنا كلُّنا، ومعنا حمزة، في ضحكٍ طويلٍ

بصوتٍ عالٍ، سمعَهُ قسمُ العظامِ كلُّهُ في المستشفى.

ثمَّ قلتُ وأنا أزيحُ السّتارةَ الّتي تفصلُنا عنْ حمزة، وأضربُ لهُ التّحيّةَ:

أهلاً بكَ يا صديقَنا الجديدَ في وظيفتِكَ الجديدةِ...

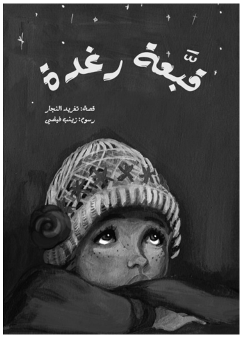
أحلام بشارات

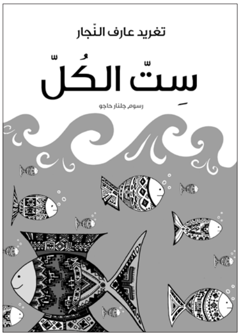
ولدت أحلام بشارات وكبرت في أسرة تعمل في زراعة الأرض، كانت تحلم بأن تصبح مصممة أزياء، أو رسامة، أو مزارعة، لكنها صارت كاتبة، ولم يكن هذا سهلاً، مازالت تتعذب وتستمتع بالكلمات، وأحوال الطقس، مثل الحقول والتلال والوديان الصغيرة.

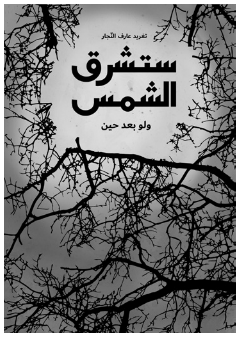
أحلام بشارات كاتبة من فلسطين. من أخفض بقعة في العالم، كما تحب أن تصف مكان طفولتها. صدر لها أربعة كتب لليافعين: رواية "جنجر"، رواية "أشجار للناس الغائبين"، كتاب المذكرات "شجرة البونسيانا: مذكرات فتاة من أخفض بقعة في العالم"، رواية "اسمي الحركي فراشة" التي ترجمتها دار نيم تري بريس إلى اللغة الإنجليزية. لها أيضا مجموعتان قصصيتان، وكتاب رسائل مشترك، ومجموعة من قصص الأطفال، آخرها قصة "سرير جدي".

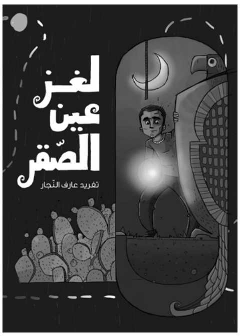
تعيش أحلام حاليًّا "مع بيتها"، وتتحدث إلى نباتاتها كثيرًا.

روايات أخرى لليافعين صادرة عن دار السلوى









جابر ورافيا ومنصور وعدلي، أربعة أصدقاء، توطّدت علاقتهم منذ أيّام الرّوضة، وبقوا محافظين على صداقتهم حتّى العطلة الصّيفيّة التي تفصلهم عن الانتقال إلى الصّفّ العاشر.

وتحت شجرة الخرّوب الواقعة على تلّ العاصور، يلعب هؤلاء الأصدقاء "لعبة الذّكريات" ويتقاسمون الأدوار التي ستكشف عن جانب خفيّ في شخصيّة كلّ واحد منهم.

ماهو الشّيء الذي يدفع جابر إلى حراسة ذكرياته؟ ولماذا أسّس جابر في خياله مصنعًا للذّكريات؟ وهل سينجح جابر في الخروج من دائرة الذّكريات إلى الحياة الحقيقيّة؟

رواية مؤثّرة مفعمة بالمشاعر الإنسانيّة العميقة يرويها لنا "جابر" بكثير من الوفاء لذكرياته وبرغبة عارمة في عيش الزّمن الحاضر.

9 789957 041366

السلوى
Salwa
Publishers ناشرون